محمد المنصور الشقحاء
فرشاة إله الرعد

The Brush of the God of Thunder

BY: **Mohammad alMansor alShakhaa**

Copyright E-kutub.com 2011

Published by E-Kutub.com

ISNB: **9781780580241**

Google e-book Edition

* * * * *

PUBLISHED BY:

e-kutub.com on www.e-kutub.com , & Google books

License Notes

This e-book is licensed for your personal enjoyment only. This e-book may not be re-sold or given away to other people. If you would like to share this book with another person, please purchase an additional copy for each person you share it with. If you're reading this book and did not purchase it, or it was not purchased for your use only, then you should return to e-kutub.com and purchase your own copy. Thank you for respecting the author's work.

* * * * *

الطبعة الألكترونية الأولى

جميع الحقوق محفوظة.

مرخصة فقط للإستخدام الألكتروني، لا تجوز طباعة أي جزء من هذا الكتاب على ورق.

كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.

هذه الطبعة محمية وفقا للمعايير الدولية ضد النسخ وإعادة التحميل والتدوال غير المرخص به.

أي محاولة للنسخ او إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.

إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي-كتب) أو غوغل بوكس، نرجو اشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة بالكتابة الينا: Ekutub.info@gmail.com

بشرائك الكتاب سوف تحصل على إيصال الكتروني بالدفع. الناشر يرجوك ان ترسل نسخة من الايصال الى عنوان المؤلف التالي لكي تتلقى منه رسالة شكر: mohamd_s@maktoob.com

* * * * *

فـرشـاة اله الـرعـد

(حكايات وقصص قصيرة)

محمد المنصور الشقحاء

قائمة المحتويات

- الخرثاء
- إذا كنت
- البجعة
- النضناضة
- وأنا
- الشاعر
- العرجاء
- الخلاص
- الفندق
- الطيبة
- العائذ
- سمية
- السور والكتب
- صائد المسافرين
- فرشاة اله الرعد
- فسيفساء
- أسكت يا الخبل
- المكيدة
- الباب
- الدوام انتهى
- تربص
- خروف العيد
- المتاهة
- الحلم

ـ مناجاة

ـ الأخت الثالثة

ـ كم هي الكرة الأرضية صغيرة

ـ استبداد اللحظة

ـ الركض عبر أزقة الزمن

ـ شذرة

ـ متآكلا بالصمت

ـ البقاء على مقربة

ـ سبات عميق

الخرثاء

منذ عشر سنوات أقام والدي حفل عشاء بمناسبة اجتيازي الثانوية العامة، حضرها بعض الجيران وزملاء والدي في العمل وأقاربنا في تلك الليلة .

قال جارنا أبو ضيدان: أنصحك يا أبو محمد تسجل محمد في الجامعة بالرياض، منها ترتاح من سفرك كل نهاية شهر بأم محمد لمواصلة علاجها في المستشفى التخصصي، وفيها يواصل محمد الدراسة في التخصص الذي يرغب وانصحه بقسم اللغة الانجليزية.

بعد تردد وممانعة والدتي سافرنا للرياض (كل العائلة) لتأثيث السكن الذي أمنه لنا أبوضيدان؛ أخذ والدي إجازة لمدة شهر من العمل حتى يرضي أمي ويعرف أخواتي وأخواني معالم مدينة الريا ض والتعرف على الطرق والأسواق والعيادة التي تواصل أمي فحوصاتها فيها منذ شهور خمسة.

السكن دور أول في منزل تملكه أبو ضيدان عند ما كان يعمل في الرياض، يسكن الدور الأرضي أخوان من جماعته، الأول جندي في المرور والثاني موظف مدني، عندما وصلنا كان الدور الأرضي مزدحما حيث أنجبت زوج العسكري مولود ها الثاني، والموظف فرح بتعيين زوجته الجامعية معلمة في مدينه عرعر بالشمال ويخطط للنقل حتى يبقى بجوارها.

رحل الجميع وبقي العسكري وزوجته ووالدته حتى ترعى المرأة النفاس، شجار المرأتين يصلنا بسبب التنافر، فكانت والدتي تتدخل، انتهت إجازة أبي وبقيت أمي ترتب أموري في الشهر الأول جامعة، ولما انتهى فحصها الدوري سافرت.

تعودت اهتمام جاري ورعاية والدته حتى أخبرني أنها سافرت لديرتهم، السكون عم العمارة لولا صراخ الوليد ونداء الخادمة على الابن الأول ذي السنوات الخمس، الذي يغافل الجميع ويخرج للشارع أو يصعد لسطح المبنى بعد فتح الباب الذي يفصل الدورين.

أمضيت إجازة الفصل الدراسي الأول مع أسرتي، وكانت عودتي مع موعد جديد للمستشفى، رحب جارنا بي، كانت والدته عنده وشقيقه وباقي أسرته، تجمع النساء حول والدتي ومددت جلوسها لأسبوع.

مع سفر والدتي عاد السكون للمنزل، وذات ليلة وأنا أمام التلفزيون في صالة الجلوس أتابع مباراة في كرة القدم وأوراقي الجامعية متناثرة حولي في صخب وعبث، سمعت وقع ركض على السقف وأصوات مبهمة ولغط في الدرج الذي يطل عليه المدخل، ترددت في اكتشاف الأمر وعاد السكون الذي لم يلبث أكثر من دقائق ليتجدد الركض.

فتحت باب المدخل استطلع كانت الخادمة تحمل الطفل وهو يتفلت منها، ولما اختفت لمحت امرأة ممتلئة بيضاء هابطة بشعرها الأسود المنفوش وثوبها المنزلي القصير حتى الركبة، المفتوح من الجانبين، تسمرت في مكاني، تريثت قليلا ثم واصلت نزولها ووقفت قبالتي:

ـ آسفين على الإزعاج! ..

-....

ـ الولد الشقي يتعبنا في غياب والده.

ـ الله يهديه.

ـ كيف الوالدة؟

ـ بخير ولله الحمد.

لما تركتني دققت في جسمها وثوبها الضيق وتهزهز وركها، التفتت وقد زرعت على وجهها بسمة خفيفة.

قالت: أكيد ما تعشيت؟

قلت: انشغلت بالمذاكرة..

لا أدري هل سمعتني.؟ ولكن لم أسمع مزلاج الباب الفاصل يغلق، أغلقت الباب وعدت لمكاني وفي أعماقي خيالات غريبة، معها أتابع أحداث المباراة، سمعت الباب ينقر كانت هي دخلت وبين يديها صحن به قطع جبنة وزيتون وعلبة لبن وقرص خبز، أربكتها أوراقي وكتبي المتناثرة، انحنت لوضع ما تحمل على الأرض؛ شعرت أنها تفحصني .

قالت: هذا من عشانا..المعذرة.

قلت: فيه البركة.. شاركيني الأكل.

ترددت وجلست على الأرض تلملم أوراقي وكتبي، ثم نهضت لحقت بها قبلت رأسها وأنا أغمغم بكلمات امتنان أسري اعتدته، فتحت الباب واختفت.

شعرت بالخوف فهجرت الشقة مع ثلاثة من طلاب قسمي بدعوى إكمال بحث كلفنا به أحد الأساتذة، ولما عدت كانت أوراقي متناثرة وفراشي مبعثر وأدوات المطبخ في غير مكانها، قامت والدتي التي جاءت مراجعتها سببا في العودة للسكن بترتيب كل شيء.

الدور الأرضي ساكن لم يكن هناك أحد، وعرفت من صاحب مكتب العقار الذي أقابلة في خروجي ودخولي للحي أن جاري مسافر لقريته في الشمال ليحضر عرس إحدى أخواته، لم تبق والدتي سوى أيامها الثلاثة.

في اليوم السابع عاد الضجيج للدور الأرضي، غادرت متلصصا للجامعة وبقيت حتى العاشرة ليلا مع الأصدقاء، ولما عدت وجدت طبق الجبن والزيتون وقنينة اللبن وقرص الخبز تحت غطاء من القماش شفاف بألوان متباينة أمام المدخل.

في اليوم الثاني عدت مع الظهيرة وتمددت في الفراش، سمعت باب المدخل يقرع نهضت متثاقلا كانت هي.

قالت: عسى خير! هل أنت مريض؟

قلت: تعب الدراسة.

قالت: يهون عند التخرج.. كيف صحة الوالدة؟

لم تدخل شدت على كفي ونزلت، سمعت مزلاج الباب الفاصل يقفل، قمت بزيارة مركز خدمات الطلاب لتصوير بعض الملخصات، أشعلت التلفزيون وأوقدت الموقد لصنع كوب من الشاي، ولما كانت الحادية عشرة ليلا نقر خافت على الباب كانت هي، عرفت إن زوجها في العمل وابنها وابنتها في فراشهم والخادمة في غرفتهما.

ترتدي ثوب نوم شفاف يصل إلى ركبتيها وعليه دثار من ذات اللون من الحرير السميك، صدرها نافر وشعر رأسها مرجل ومربوط بمنديل بلون ملابسها، لم تهتم بأوراقي وكتبي، دفنت رأسي في صدرها كانت تبحث عن شيء في جسدي ورغبة وحيدة هي أن تتخلص من هذا الهوس الذي حمل صوتها وقلبها سخرية حاقدة من شيء معقد، كانت تتصبب عرقا وقد خيل لها إنها تقف فوق هوة ساحقة سوف تبتلعها. تصاعد في داخلي حق الجيرة الطيبة والمذمومة لم تكن تسعى لإرضاء الغير بل تسعى إلى لذة الإرضاء التمعت عيناها من شدة السرور؛ وأنفاسي تلهب عنقها ولساني يدغدغ شحمة أذنها سكن روعها فأخذت تضحك.

قالت: تصدق منيف لم يكتشف أعماقي وهو يسوقني صوب هذه المغامرة غير المعقولة

قلت: واليوم!..

قالت: أنت اقتحمت اللجة.. كنت مندهشة وأنا أسمع بعض سوالف معارفنا، كنت أموت ببطء

قلت: وليه خايفه. المغامرة تمنحنا وهم بدء جديد

قالت: شعور لم أجد له تفسيراً انا في الفردوس ولاشيء أكثر

قلت: اسمعي قصصهم واحك لي.

قالت: يا خبيث.. لن نفلت من اللحظة بالنسيان.

قلت: أتخيل في الفجر أني أسمع دمدمة.

قالت: مسكين منيف يشعرني بوجوده.. على نيته.

وانشغلت مع زملاء القسم في برامج ورحلات تنبهت معها أني بحاجة لعبث جارتي، التي لم تهتم بحضوري ولكن من ضجيج الدور الأرضي عرفت أن هناك زواراً في اليوم الثالث وأنا عائد من الجامعة بعد الظهر وجدتها في فتحة الباب الفاصل ببنطال جينز أزرق وبلوزة ألوانها متداخلة زرعت إصبعها على أنفها تأمرني بعدم التكلم، واصلت طريقي تركت الباب مواربا وجلست أترقبها على أحد مقاعد غرفة الضيوف.

هلت رائحتها انحنت علي تقبلني عضضت شفتيها وأنا أمرر كفي على ظهرها ومؤخرتها، تبادلنا بضع كلمات، اعتقدت أنها مجنونة. بعد لحظات صمت (قالت هامسة: الموت يخضعني لأنشد القوت في الظلال والخطايا) وارتفع صوت امرأة يناديها مع تصفيق متكرر.

قالت: إنها أختي الهنوف.

قلت: تعرف أنك هنا؟

قالت: نعم وتعلم كل شيء!

تركتني قلقا ومن الإرهاق نمت حتى خيم الظلام وجاء صوت أحد الزملاء عبر الهاتف يدعوني لمناقشة مخططات بحثنا الجديد، عند الباب وأنا أركب سيارتي شد انتباهي وجود عربة (فان) حديثة موديلها فاخر عند باب جاري وعدد من النساء والأطفال، لمحني جاري فلوح بكفه، تأخرت في التحرك أبحث عن شقيقة جارتي بين العباءات السوداء وكشاف عامود النور يملأ الشارع ضياء.

في نهاية العام الثاني قال جاري الذي يزورني مطمئنا على فحوصات والدتي: إن أخته التي حصلت على الثانوية العام السابق؛ توسط لها أبوضيدان حتى تدخل الجامعة، وقطع حديثنا دخول والدي يحمل صحن أبريق الشاي، فقد توافق تكليفه بمراجعة الوزارة لإكمال أوامر صرف مخصصات بعض الموظفين في دائرته

بالطائف، معها رافق أمي لموعدها، وفي المساء كنا نتناول العشاء في الدور الأرضي مع بعض الجيران عرفت منهم عديل جاري، أحد كبار تجار الأراضي، روج أثناء الحوار لمخطط أراضي جديد في شرق الرياض ينتظر الموافقة على بيعه خلال أشهر، وتعهد لوالدي بحصوله على سعر طيب إذا اشترى إحدى قطع المخطط.

في الصباح أوصلت والدي ووالدتي للمطار وأكملت باقي يومي الجامعي مع عميد القسم لمراجعة جدول اختبارات الفصل الثاني، ولما بدأت إجازة نهاية العام الدراسي لحقت بأسرتي وسافرنا للقاهرة.

في العام الدراسي الثالث جاءت أخت جاري التي التحقت بالقسم الذي أدرسه فكان علي أن أحذر من تقربها وجارتي تملأ حياتي بما تملك من السحر.

وذات مساء كان جاري وشقيقته يقفان أمام باب مركز خدمات الطلاب الذي أصور عنده أوراقي الجامعية، لمحني وأنا خارج فناداني حتى يعرف كيف يحصل على طلبات أخته، كانت نظراتها تتجاوز زجاج نافذة السيارة متدثرة بعباءتها ونقابها الذي من فتحتيه الواسعتين تتحرك حدقاتها، دخلت معه للبحث عن طلباته وارتبكنا في معرفة اسم الدكتور الذي تبحث عن ملخصات مذكراته ودفعني لسؤالها، لما لمحتني أقترب رفعت النقاب كاشفة وجهها ابتسمت وهي تمد كفها بورقة دونت فيها طلباتها.

قالت جارتي: شفت نوير؟

قلت: من..!

قالت: نوره أخت منيف.

قلت: نعم.

قالت: جاءها خطيب وسوف تتزوج.

قلت: ودراستها.

قالت: أختي تبغي تشوفك.

قلت: ليه..!

قالت: حتى تشوف أني صادقة انك تدمرني.

قلت: أدمرك.

قالت: وزني نقص وحالي تبذل.

قلت: شكلك مثير ورطب.

قالت: فعالك خلتني باردة.

كانت تمنحني شيئا جديدا، ونبرة صوتها تخبرني بأنها غير طبيعية وفي داخلها قلق.

قالت: أنا حامل.

قلت: مبارك.

أرتبك حمل جارتي فدخلت المستشفى، وهنا سنحت الفرصة لنورة عبر شقيقها من خلال طلب بعض الأبحاث والمراجع، اعتدت سماع غناء نوره ولقاءها أمام الباب، وعند مركز خدمات الطلاب، ولم أتوقع تسللها ذات ليلة.

قالت: أذكر حين تعرفت إلي كنت قلقا بغيضا.

قلت: ماذا تريدين؟ سيكون الوضع مخزيا.

قالت: أريدك.. كلهم مشغولون بهمومهم.

قلت: زواجك في الصيف.

قالت: أتسلى حتى ذاك الوقت هي فرصة لن تفسد شيئا.

أمسكت يدي بحركة عفوية. وذلك الهلع الذي وسم اللحظة، أحيا في قلبها كلمات اختنقت في حنجرتها والرغبة الداكنة تلمع في عينيها.

جاء صوت الهنوف زوجة العقاري الكبير تخبرني أن جارتي سافرت للقرية عند أمها حتى ينتهي حملها بسلام، شعرت بحزني وأنا أخبرها تخرجي من الجامعة وتوسط أبوضيدان لي ببعثة لمدة عامين في المجال الأمني حتى التحق بالشرطة؛ هنا دعتني لزيارتها.

قالت: السائق بعد أذان المغرب يكون في انتظارك عند الباب.

قلت: ولم لا تأتين!

قالت: زوجي مسافر.

كان القصر يخيم عليه السكون، قادتني الخادمة مرتبكا لغرفة الضيوف فتح باب داخلي كانت تشبه أختها بيضاء ورشيقة، صافحتني ثم جلست في الكرسي المقابل جاءت الخادمة بدلة القهوة بعد الفنجان الأول قامت واختفت دقائق.

قالت: هذه هديه من أختي طقم أقلام مذهبة.

قلت: يكفيني سلامتها.

قالت: أمانة حملتني بمناسبة التخرج.

خادمة أخرى هلت بكأس من عصير الفواكه. لما انتهيت من شربه غادرت الغرفة؛ جاءت الخادمة الأولى تخبرني أن السائق ينتظرني.

لما عدت من بعثتي كانت أمي قد اختارت عروسي إحدى بنات ابوضيدان الذي لم يرزق بولد ذكر، وجاء عملي في مدينة جدة ومع انتهاء العام الرابع جرى نقلي للرياض في قسم بالإدارة العامة توفر معه السكن الحكومي، بعد شهر ونحن في المستشفى نكمل الفحص الشهري لزوجتي الحامل في شهرها الثامن.

قالت: بنت خالة أبوي عزمتني على القهوة.

قلت: لأبو ضيدان أقارب في الرياض؟

قالت: طبيبة في مستشفى الشميسي.

قلت: تعرفينها؟

قالت: أول مرة أقابلها... كانت في الكويت.

قلت: متزوجة؟

قالت: نعم زوجها اسمه بجاد من جماعتنا تقول أنه يعرفك.

ولما وصلنا دار الدعوة كان في استقبالنا جاري منيف حافي القدمين وأكبر سنا؛ لم يعرفني لاحقته زوجتي بنظرها برهة؛ أقسم على أن أدخل لشرب فنجان قهوة وأنا أتساءل إن كان فقد الذاكرة.

* * * *

إذا كنت

بعد عام على رحيلها جاء من غربته في زيارة عمل كان صوته قلقا وهو يسأل عنها، أعرف أنها نشطة في مجال عملها الرسمي كمعلمة ومشرفة تربوية ثم مديرة مدرسة وعملها التطوعي في المجال الاجتماعي كعضو في جمعية نسائية أهلية.

هي ابنة عمي وكذلك ابنة خالتي، جاء زواجنا وأنا أستعد لبعثة دراسية في أمريكا استمرت عشر سنوات، أنا حصلت على الدكتوراه وهي على عدة دبلومات في مجالات مختلفة، معها كانت تشارك في نشاطات اجتماعية وسياسية قربتها من حزب صغير في الولاية التي ندرس في عاصمتها يدافع عن حقوق المشردين.

لما عدنا كان معنا ابني راشد بسنواته الثمان، هي وجدت في مجال التعليم طموحها وأنا من خلال رئاسة مجلس إدارة شركة مالية ناشئة ساهمت بها أسرتي الميسورة بنصيب وافر من الأسهم في رأس المال حتى أطبق نظريتي الاقتصادية.

قال: بعد أن جلس في المقعد المقابل لمكتبي. الأمر يحتاج إلى وعي!

قلت: سوف أفهم الأمر بعد سماعه.

قال: كل شيء في الملف.

قلت: وأنا أتناول منه الملف.. نشرب القهوة ونتناقش..

قال: حضوري كان لموعد سابق.. معي مرافقون مرتبط تحركنا ببرنامج عمل.

تركت الملف وأوصلته لباب المكتب دفعني الفضول لمتابعته وهو ينزل الدرج للدور الأرضي حيث مقاعد انتظار المراجعين، لمحت رجلين وامرأة سحناتهم أوربية، اتجه نحوهم وغادر الجميع المبنى.

عدت للمكتب، أحضر السكرتير ملف البريد، مد يده لحمل الملف الذي تركه الرجل، شيء في داخلي دفعني إلى سحبه منه.

قلت: سوف أطلع عليه وأضمه للبريد.

طلبت منه تركي ساعة لدراسة البريد كما هي عادتي وتحويل المكالمات للمساعدين.

كانت صورتها أول شيء صافحني ثم ورقة عقد زواج مدني موثق يحمل اسمها واسم غير اسمي، تذكرت أنه اسم الرجل الذي كان قبل دقائق أمامي، وفي الملف صورة لها معه في مطعم وأخرى في مؤتمر، من التي تدعى لها كمشارك، تاريخ العقد يعود لسنوات خمس قبل موتها اثر وعكة حمى لم يتم تشخيصها بدقة، كانت ضمن وفد تعليمي ثقافي لباريس تعرفت عليه كمترجم ومرافق وبالتالي أصبحت باريس محطة لرحلاتنا، فيها كانت تقضي وقتها مع زوجها الثاني بينما أنا في انشغال بمهامي وفق جدول اعددنا ه مسبقا لمثل هذه الرحلات اكتسبناه من خلال رحلة الدراسة.

من الورقة الثانية عرفت إن ابننا رامي جاء بعد زواجها وكذلك ابنتنا رانية، العرق تصبب مني وأنفاسي تتقطع، الورقة الثالثة صورة عقد شراء شقة في باريس باسمها فيها توثيق قانوني بتنازلها عنها لزوجها كمهر مقدم منها له.

لم أواصل تقليب باقي الأوراق وبرز طرف صورة لها معه يطوقها بذراعه في مدرج أحد ملاعب كرة المضرب، أعدت ترتيب الأوراق ودسستها في خزنة المكتب.

في المنزل ونحن على طاولة الغداء راشد ورامي ورانية والخادمة تقدم لنا الأطباق التي أعدها الطباخ أخذت أحدق في أطفالي الثلاثة، راشد في منتصف سنته الرابعة عشرة ورامي ذو السنوات الخمس ورانية ذات السنوات الأربع وهاجس يقول هل هم أبنائي؟ قطع هواجسي رنين الهاتف كان أخي يذكرني بلقاء اخر الشهر الأسري في استراحة العائلة بطريق الثمامة.

في غرفة النوم أعدت تفتيش خزانة الملابس وخزنة المستندات وأدراج التسريحة وباقي الخزائن في الغرفة كل شيء عادي، أوراقها ومذكراتها ولفيف من الرسائل الرسمية والخاصة ووثائقها الرسمية وشهاداتها العلمية حتى سندات الأسهم وحسابها البنكي الذي لم أقربه حتى اليوم.

اتصلت بالرجل الذي خلق قلقي فكان هاتفه مغلق فاتصلت بمن أعرف في باريس للبحث عنه تأخرت المعلومات طلبت من صديقي زيارة الشقة التي كانت تملكها، وجد بها ساكنا جديداً قام بشرائها منذ أشهر.

قال راشد: بعد ثلاثة أشهر.. أحدهم اتصل يسأل عنها..

قلت: قال اسمه.

قال: نعم لكن نسيت والذي عرفت انه يتكلم من القاهرة.

قلت: تكرر اتصاله

قال: نعم وتذكرت أنه ذات مرة استقبلنا في المطار

تخالط الآمر هاهي رانية تدخل في الصورة، كنا كل سنة نقضي جزء من الصيف في القاهرة، ولنا شقه تمليك فارهة وسيارة، وبعض من عمال المؤسسة من مصر ولنا مكتب اتصال يسهل تعاملاتنا المالية.

قررت السفر للقاهرة وهناك رحب بي بواب العمارة وجاءت زوجته لخدمتي كل شيء في مكانه أخذت أقلب الخزائن ورفوف الغرف حيث أجد بعض صورنا وكتب كانت تقتنيها تنمي منا شطها الاجتماعية والتربوية وتثقفها سياسيا، كنت أتعجب من نهمها القرائي وقدرتها على العمل.

نمت من إرهاق أيام ثلاثة من البحث كل ما أعرف أن اسم الرجل صالح، انه اسمي لكن أنا صالح عبد الرحمن وهي سامية عبد الخالق فهل هو صالح عبد العزيز بعد وصولي لهذه النقطة المأزق.

زرت المكتب وطلبت من مديره الحجز لي على رحلة الرياض كما هي عادتي وسريعا، بعد التأكد من السفر خلال أربع وعشرين ساعة أنجزت بعض المهام واتصلت بأطفالي أخبرهم بعودتي.

وأنا أترجل من عربة المكتب وقف بواب العمارة ولوح بيده لسيارة تحركت مغادره لم يتنبه قائدها فاختفت في الزحام سلمني البواب مغلفا مغلقاً قال إن أحدهم أحضره.

عند باب المصعد تذكرت أنها تتحدث كثيرا عن وهم تفوق الرجل في الشأن والقيمة وفق عقدة نقص مستحكمة تتجاوز البعد الديني وهاجس حقوق الإنسان ودور المجتمع المدني الذي صيغ حراكه بثقافة وفكر تعكس الخصوصية المدمرة في مواجهة الآخر وفق أسئلة شتى تصل بنا في النهاية إلى عجزنا عن اكتشاف السر.

في المصعد تمالكت هدوئي ومعي فتاتان ورجل عجوز يشاركونني الدور، أغلقت باب الشقة بالمفتاح، فتحت المغلف كانت صورتها وكفها تمسك بكف آخر في صورة للذكرى، نعم كان صالح عبد العزيز مغتربا فضل القاهرة بعد رحلة دراسية تكللت بالنجاح، فاحتضنته الجامعة بصفة مؤقتة ولميوله الأدبية وتهافت دور النشر على كتاباته الأدبية والفكرية سرقه الوقت، ولما التقى بها منذ سنوات ثلاث في ندوة فكرية اختلطت فيها المواقف تزوجته مع معرفته بأنها متزوجة ومستواها الاجتماعي أفضل من مكانته الأدبية؛ قضت أسبوعا من العسل في الإسكندرية تركت راشد ورامي عند والدته المتزوجة من موظف في السفارة.

لم تترك له شيئا إذ لم تتمكن من شراء شقة ولكن كانت تساهم في إعادة طبع بعض مؤلفاته. عقد الزواج بخط قلمها ذي المداد الأخضر وكتابتها التي أعرف، غير موثق وتاريخه بعد ولادة رانية بسنة، شيء من الارتياح دغدغني وأنا أقلب الأوراق التي لم تكن أكثر من أربع ورقات وثلاث صور، قررت حرقها دخلت المطبخ وأشعلت فيها النار؛ تنبهت على الهاتف كان مدير المكتب يطلب مني الاستعداد للسفر.

في الذكرى الثامنة لوفاتها وأنا أزور راشد الذي يدرس في لندن تذكرت أنها كانت تزور المكتبات وتتركني أتجول وحيدا ونلتقي في مطعم وجدنا فيه حاجتنا؛ راشد يشارك زملاءه حفاوتهم بتخرج أحدهم .

لاحت المكتبات أمامي وأنا أتجاوز المطعم المعتاد، لم أشعر بالتعب، دخلت المكتبة الأولى والثانية والثالثة وفي الرابعة صافحني اسمها سامية عبد الخالق على كتاب من القطع الصغير يحمل عنوان (إذا كنت) ترددت في اقتنائه.

قال البائع: إنها الطبعة الثانية للرواية.

قلت: تعرف المؤلفة؟

قال البائع: وصلتنا المسودة بالبريد.. وبعد صدور الطبعة الأولى انتقلت لرحمة الله.

قلت: ومن سمح بالطبعة الثانية.

قال البائع: زوجها.

اقتنيت نسخه من الرواية على الغلاف الأخير كتب الناشر (المؤلفة حسناء تجلس على منصة، تقاتل في سبيل وجودها، أنطقت بطلة الرواية لتقول ما تريد في ظروف عامة ضد الظلام، عبر مجتمع هي شكلته، حتى تبحث من خلاله حرية التعبير وحق المشاركة؛ في حراك محكوم بالتبعية والمنفعة بين أطراف تتشح بالمسكوت عنه وتشكل وفق منطق مختلف جوهره الخصوصية) دسستها في جيب المعطف، دخلت المطعم لم يتغير شيء وان تبدل العمال انحنت النادلة تسألني عن طلباتي ملامحها العربية دفعتني إلى الرد بالعربية ابتسمت وهي تقدم الطلب حركت الكتاب ثم حملته.

همست النادلة: (إذا كنت) عنوانا غريبا..

غمغمت: وآنا اسحب الكتاب منها وادسسه بقلق مرة ثانيه في جيب المعطف.. نعم.. نعم ناولتها قيمة الطلب ونهضت.

* * * *

البجعة

قالت: كنت أقوم بشراء مثلجات للجميع غير أن البائع وهو يتناول ورقة الخمسمائة ريال اعتذر عن عدم وجود الباقي وطلب مني التريث؛ وجاء قام بشراء قنينة ماء فشعرت بالارتباك وصرخت بالبائع أستعجله، تدخل ودفع عني قيمة المثلجات وقال مبتسما هذا رقم هاتفي إذا رغبت بالتسديد تلاقت كفه بكفي في مصافحة عفوية فسرى في بدني تيار كهربائي.

قال: كانت جميلة جدا وصامته لم تنبس بكلمة، تابعتها بنظري وهي تبتعد بين خطوة وأخرى تلتفت، جلست على احد المقاعد حتى اختفت بين مرتادي مدينة الألعاب.

قالت: دسست الرقم بين ثنايا محفظة النقود وأنا أتحرك باحثة عن مرافقاتي؛ رن الهاتف كانت أختي تسألني عن الرجل الذي كان يقف بجواري عند دكان المثلجات، ولما تجمعنا في السيارة عائدات للمنزل نسيت كل شغبنا.

قال: سافرت في رحلة عمل خارج البلاد ولما عدت تعرضت لوعكة حمى دخلت بسببها المستشفى لأكثر من شهر تجاوزت عندها الخطر وتحديت الموت.

قالت: جاء صوته الذي أعرف لم ينس مقدار المبلغ الذي أقرضني إياه عرفت أنه كان يمر بحالة فساد المزاج وتغير في الصحة.

قال: تكرر تحادثنا لم أخبيء عنها شيئا من حياتي الوهمية كنت أحسبها في أحد أحياء مدينة الرياض.

قالت: بعد عام من المحادثات الهاتفية عرف إني أقيم في مدينة الظهران.

قال: شعرت بأنها لا تمانع في لقائي فحددت موعدا في مطعم فندق أعرفه يطل على البحر يرتاده رجال الأعمال والأجانب، انطلقت بسيارتي قبل الموعد.

قالت: لما دخلت مطعم الفندق وجدته كما تخلق في أعماقي قام مرحبا بمقدمي تبادلنا الحديث وبعد شرب فنجان القهوة تركته.

قال: تكرر لقاؤنا في مدن مختلفة استطعت أن أقترب أكثر، لامست الفرح الساكن في أعماقها.

قالت: بداخله وهج مؤثر وشفاف، حرك حواسي الخمس فشعرت بالأمان.

قال جاء هاتفها: إنها في الرياض فركضت أبحث عنها كانت تنتظرني لأشاركها جولة في أحد الأسواق؛ انفصلت عن مرافقاتها، جلسنا في ركن القهوة نتحدث ونراقب المرتادين.

قالت: في اليوم الثاني دعاني لشرب كاس من عصير الفاكهة في منزله.

قال: عندما اقتربت من منزلي طلبت منها الاختفاء في المقعد حتى نقف، أدخلت السيارة الفناء.

قالت: كان منزله فاخرا ولم يكن هناك أحد، عرفت أنه يقيم وحيدا وأنه منح الخدم إجازة.

قال: قدمت لها كأس خمر فاخر معتق بعصير فاكهة المنقى أعتدته لم يعجبها المذاق غير أني رشفت كأسها فقلدتني متجرعة ما تبقى في كاسي.

قالت: كان التلفزيون مفتوحا على قناة أغان غربية راقصة مع الحديث والشرب أخذت أتمايل نشوى طلب مراقصتي.

قال: جلست عند قدمها ينام رأسي على ركبتها ونحن نتحدث.

قالت: امسك بذراعي ضمني فجر بئر سكوني بموج بحر صاخب.

قال: ذات مساء جاء اتصالها بأنها مسافرة للخارج لتطوير مهارتها الإدارية على حساب الشركة التي تعمل بها لمدة عامين.

لما عدت لم أجده في أثناء حواري مع بعض الصديقات في حفل زفاف إحدى الأقارب بالرياض عرفت انه مات في حادث سير. نهضت من مقعدي مرتبكة؛ وعد التي كانت ترقص مع ثلة من الحاضرات على غناء مطربة الحفل لما

لمحتني توقفت واتجهت نحوي. همست وعد وهي تحفزني للرقص لم أقتله كنت أنتظره انفجر أحد إطارات سيارته فانقلب وفارق الحياة.

* * * *

النضاضة

أسرتي ثرية وهكذا جاء زواجي وفي العام الثاني دب شجار عنيف بيني وبين زوجي بسبب تأخر الحمل، الدليل الناجع في نظره لتكامل المزج، كموقف تركت البيت وعدت لغرفتي في منزل الأسرة وبعد أيام جاء والده للصلح.

في المساء دعا زوجي بعض من الأصدقاء وبعض من الأهل على حفل عشاء بمناسبة رجوعي فيه تعرفت على ليلى زوجة زميل زوجي في العمل، لفت نظري جمالها مع تقدمها في العمر ونحول جسمها، أربكني تبذلها وسردها لعدد من الطرائف والنكت الجنسية ونظراتها تلاحقني.

بعد أيام جاءت ليلى ومعها هدية خاصة بادعاء أنها سوف تسهر عندي حتى عودة رجلينا من حفل تقيمه إدارتهما في العاشرة ليلا قالت: إنها تعبة وترغب في الاضطجاع طلبت مني السماح لها بالرقاد في غرفة النوم.

جلست في غرفة التلفزيون أتابع أحداث مسلسل عربي وغفوت في مكاني، تنبهت على أنفاس ليلى التي كانت منحنية علي تتنشق رائحة شعري، لما عرفت أني صحوت طوقتني بذراعيها؛ قبلتني على خدي ولحست عنقي ثم اندست في حضني متوسلة بالوجد الذي ربطها بي ليكون اتحاد روحينا، تنبهنا على جرس الباب كانت الرابعة صباحا ودعتني بقبلة طويلة اختلط فيها لعابنا وهي تتلفع بعباءتها.

سافر زوجي في رحلة تدريب لتطوير مهاراته في العمل معها عدت لمنزل الأسرة؛ وجاء اتصال ليلى تخبرني بأن زوجها غائب في مهمة رسمية وتدعوني لزيارتها، عرفت أنها تقيم مع أسرة زوجها فتذكرت تلك الليلة التي قضتها عندي وشعرت برغبة في تكرارها؛ فضلت أن نلتقي في منزلي لم يمانع والدي فأوصلني سائق العائلة لمسكني.

جاءت ليلى كانت تقاوم رسيس الحمى، فاحتضنتني لم تهتم بتمنعي وأنقذني من نهمها اتصال أخي، أوصلناها لمنزلها لتسألني عبر الهاتف في مساء اليوم التالي عن مشاعري نحوها وهل أخي يملك صديقة أخذت أضحك.

في نهاية العام أخذ زوجي اجازه وسافرنا إلى أوربا لمدة شهرين، ولما عدنا أقام زوج ليلى لنا حفل عشاء تعرفت فيه على أسرته، ليلى التي استغلت انشغال الجميع لتأخذني لجناحها في منزل العائلة.

وكما هي عادة إدارة عمل زوجي بمناسباتها المتعددة فاجأني ونحن نتناول الغداء.

قائلا: سوف أسافر بعد العصر.

قلت: خير!

قال: لحضور حفل ختام مؤتمر يقام في احد فروع الإدارة.

قلت: يعني اذهب لأهلي..؟

وقبل أن اسمع رأيه رن الهاتف كانت ليلى تخبرني بأن زوجها مسافر وتسألني عن برنامجي تداخلت معنا تناقش الآتي، شعرت أنها ترغب في زيارتي تمهلت في الرد.

قال: إذا كنت ترغبين في حضورها؟

قلت: مقاطعة.. هل توافق..!

قال: احتمالا أرجع في آخر الليل.. أو غدا بعد الظهر.

قلت: هل نسقت مع زوجها؟

قال: زوجها سافر.. منذ ثلاثة أيام ليراقب أوراق المؤتمر ويجيز الأسماء المشاركة في الحوار! ..

قلت: وشيء في أعماقي يشتعل.. إذا تبقى معي حتى عودتكما.

مع آذان العشاء جاءت جلسنا نتحدث في أشياء عامة وشاركتني في إعداد عشاء خفيف ومع إبريق الشاي ونحن جلوس أمام التلفزيون أخرجت علبة دواء من محفظتها اليدوية فتحتها وتناولت حبة وذوبت أخرى في كأس الشاي ثم قدمت لي ثالثة ترددت في تناولها فأسقطتها في كأسي.

قالت: سوف تساعدنا على السهر.

قلت: منشط.

قالت: نعم.. نعم ومهيج.

وهي تحضن كفي وتلتصق بي سرى مفعول الحبة فلم ألاحظ أنها ذوبت أخرى في كأسي الثاني أنفاسها تلهب عنقي وذراعيها يطوقاني نتابع بشغف مطربة سمراء تثنى عودها عبر شاشة التلفزيون، معها قامت ترقص. في الحادية عشرة ليلا كانت ليلى تفتح باب المنزل للمفاجأة التي أعدتها؛ وصل رفيقها الذي بهرني حضوره ليشاركنا السمر.

قالت معرفة بصوتها الخدر: يوسف.

لهثها وولهها بمقدمه جعلني أتصبب عرقا، صحوت من أثر المخدر فدخلت غرفة النوم وجلست على كرسي المرآة وجلة أقيم الموقف؛ لحقا بي الاثنان يغتصباني وفحيح اللذة يئد هلعي.

غادر يوسف الغرفة ولحقت به ليلى بقيت في الفراش منهكة استعيد ما حدث لم أستوعب أن رجلا غريبا استباح جسدي فبكيت من الخوف؛ أرعبني السكون المطبق على الدار نهضت متوترة تلفعت بوشاح ثوب النوم وخرجت أتحسس تجولت لم يكن هنا أحد.

وأنا أحتفل بتجاوز ولدي الأول المرحلة الابتدائية في التعليم بمطعم إحدى مدن الألعاب في طريق الثمامة.

قال زوجي: ناصر عاد من بلاد الغربة.

قلت: من ناصر هذا؟

قال: زميلي في العمل.

قلت: الزملاء كثيرون.

قال: رجل صديقتك ليلى.

اقشعر بدني وتبعثر كياني.. ليلى ماتت منذ عشر سنوات بسبب حادث اصطدام سيارة فارقت الحياة أثناء إسعافها في أحد المراكز الطبية.

قال: مواصلا حديثه.. كانت الصدمة مؤثرة في ناصر فاستقال من العمل.. ترك طفلته عند أمه وهاجر لبريطانيا.. جاء ليحضر عقد قران بنته.. تري كلنا مدعوون للحضور.

* * * *

وأنا

قالت أماني: قال في ثنايا روايته (بعد عام على رحيلها استقرت عواطف التي كانت ترعى حبنا في وجداني تفكك أعماقي لكشف تفاصيلها وحسم الصراع بين فتنة هموم من أنا وماذا أكون.. بعد يوم لم أخطط له حيث طلبت كتب دراسية لابنتها الملتحقة هذه السنة بالمدرسة الابتدائية، في الرابعة عصرا لمحت الخادمة تنتظرني عند مدخل البناية، استقبلتني مسدلة خمارها على وجهها الذي أعرف تقاسيمه.. كانت تقف على مبعدة وابنتها وابنها الذي لم يتجاوز سنته الرابعة يبعثران الكتب في صخب طفولي والدفاتر وبعض المجسمات التعليمية والأقلام الملونة متناثرة على الأرض.

شيء في داخلي دفعني إلى إخراج بعض النقود من جيبي؛ طلبت من الخادمة أخذ الطفلة والطفل للبقال وشراء ما يحتاجانه، سرت بهجة وجله في المكان والخادمة مترددة والطفلة تسحبها للخروج. بقينا وحدنا، رفعت الغطاء عن وجهها بعد إغلاق الباب ترتدي ثوبا منزليا واسعاً يخفي مكونات جسدها.

أمسكت بذراعها وهي تجمع الكتب المتناثرة على الأرض، توقفت والتقى هاجسنا لما لامس فمي عنقها انهارت تدافعت في أعماقها تصبب عرقنا واختلطت أنفاسنا كانت امرأة مهجورة، تقيم مع ابنتها وابنها في شقه بالدور الرابع، زوجها رجل الأعمال يغيب كثيرا وفي هذه اللحظة مسافر منذ أيام اكتشفت اثر حرق ماء حار طال جزء من صدرها.

قالت: حدث ذلك في طفولتي وأنا أعد عشاء للأسرة كشاهد على الطبيعة القاسية التي ترعرعت عليها؛ تنبهت وأبعدتني تكومت مغمضة العينين عاودت اجتياحها طوقتني بذراعيها أخذت تلحس وجهي، إنها مشاعر التأزم لأنثى أرهقها التفكير ليكون لها موقف).

وقال: في جزء آخر من الرواية (جاء صوت أخيه آمرا؛ فكان أن ذهب رغم أنفه إلى منزل الأستاذ عبد العزيز للقيام بخدمته وخدمة والدته وزوجته وأطفاله، كان في الرابعة عشرة من العمر، نحيل الجسد يميل إلى البياض في شقرة؛ الفقر

واليتم ارتبطا به من سنته الثانية، يعيش متنقلا بين منزل أمه المتزوجة وأخيه الموظف المتزوج حديثا.

وهو يصب القهوة لأحظ مدرس الفقه الضرير بين ضيوف سيده فخشي إن المدرس عرفه من رائحته، وسوف يفضحه في المدرسة بأنه أجير يخدم في منزل أحد الأثرياء.

في تلك الليلة المرعبة رافق أحد الضيوف لإحضار كتاب تجادل حوله الضيف مع آخرين ليحكم صاحب الدار في حقيقة صدق الحدث وكيف تم اغتيال زعيم الثوار في بوليفيا تشي غيفارا، كانت الحادية عشرة من ليل شتائي هجر فيها المارة الطرق، عاد وحيدا الخوف يمزقه والبرد ينخر أطرافه عبر الطريق المعتم.

استقبلته الأم بعطف وخوف، لفت حول جسده البارد بطانيتها، وتنبه على نداء الزوجة وهي تركله بقدمها حتى ينهض ألقت على وجهه زوج جوارب صوفي طالبة منه غسلها بسرعة).

وقال: في جزء آخر من الرواية (في هذه الليلة التي غاب قمرها ونحن نفترش الأرض بجوار سيارتي في متنزه الردف ورأس حنان ينام على فخذي وأصابعي تعبث بشعر رأسها وعواطف تمرجح طفليها على مبعدة.

قالت حنان: تقدم أحدهم لطلب يدي.

قلت وأنا اقرص شحمة أذنها: نعم وهل وافقت؟

قالت: والدي رحب به وأنا أفكر.

قلت: ودراستك وأحلامك؟

قالت: أكمل المرحلة الثانوية معه والجامعة حسب استعدادي.

قلت محتجا: وأنا؟

قالت: آنت غير مستعد لطلب يدي.. فنان مهووس بالكتاب وبالأدب حتى تهرب من واقعك بتوهم المثالية.

قلت: هذا يزيد ارتباطنا لاشتراك الميول.

قالت: ومتزوج وفقير.. أنا الآن شريك حر.

انحنيت الثم فمها في قبلة طويلة مستغلا العتمة لتفاجئنا عواطف ضاحكة لننفصل عن بعض وبيدها (اسكريم) تلعقه قائله اشتري لكم واللا مشغولون بقضيتكم).

وقال: في جزء آخر من الرواية (بعد اختفاء تام فرضته على حياتي باحثا عن أجوبه لتساؤل يقلق وجودي الغائب.. جاء صوت عواطف تستنجد بي لمساعدتها حتى تسافر خادمتها، أخذتها مع والدتها وطفليها والخادمة إلى مدينة جدة في الطريق طلبت الأم إيصالها لمنزل إحدى قريباتها، وعندما ننتهي من إجراءات ترحيل الخادمة نعود لأخذها.. وبما أن وقت السفر بعد غروب الشمس والساعة تشير إلى التاسعة صباحا توجهنا عواطف وابنتها وابنها والخادمة إلى فندق على البحر في خليج أبحر هناك حجزت غرفة وانشغل الطفل والطفلة بالألعاب.

أخذت عواطف للغرفة بالرغم من تمنعها وأنه في الإمكان الجلوس في مطعم الفندق لتناول طعام الإفطار كانت نافذة الغرفة تطل على البحر ومكان الألعاب، أخذت تراقب طفليها، وقفت بجوارها أتأمل البحر متذكرا طفولتي في أقصى الجنوب وفجيعة الموت والنار التي التهمت باقي السؤدد ومصيبة اليتم وذل الفقر فاستنشقت عطرها؛ تدافعنا نقاوم عبثنا فكان أن تطامن حراكها وسكن).

وقال: في جزء أخر من الرواية (مات والد حنان وهجر الجميع منزل العائلة في الطائف، عواطف انتقلت إلى جدة لتبقى بجوار ابنتها التي التحقت بكلية الآداب في جامعة الملك عبد العزيز.. وجاء من أعرف ذات يوم قال: حنان دخلت السجن بسبب تراكم الديون وفشل بعض المشاريع جراء اختلاسات في المؤسسة التجارية التي تحمل اسمها ويديرها زوجها رجل الشرطة الذي تدروش وادعى القدرة على الرقية بعد نجاحه في عدد من قضايا الإخلال بالأمن، فجاءت محاكمته على خيانة واجبات العمل وفصله من وضيفته فرصة لبعض إخوانه فأدخلوه مستشفى الصحة النفسية تخلصا من وساوسه.. عذابات حنان وليدة المغامرة والشعور بالحاجة وبالشرط الاجتماعي المادي والرغبة بالتحكم في

المجهول ففقدت قوة الإحساس بالأشياء التي تخلق الفعل المضاد، والسجن هنا يؤكد حقيقة الإحباط الذي تعيشه كواقع؛ متجاهلة حياتها كامرأة لطفولة تقلد فيها الفتيان حراكهم في اللعب والعراك).

قالت أماني: إنها قصة مثيرة.

قالت زميلتها والتي تسكن أسرتها إحدى شقق البناية التي تقيم بها أماني وأمها منذ ثلاثة أعوام: عندي بحث أعده للتخرج هذا العام حول أعمال الكاتب.. الذي لفت نظري تمتع المؤلف بحرية اختيار اللحظات التي تناسب أبطال نصوصه، المسحوقين بدون وجوه وأسماء الملتقطين من الشوارع وكراسي المقاهي كشذرات من حياته القلقة.

قالت أماني: قد أعد بحثا عن الكاتب إذا توفر باقي أعماله!

قالت زميلتها: مكتبة الكلية تضم جميع مؤلفاته والدكتورة المشرفة على فرقتي مهتمة به.. هناك مثل تجربته الروائية هذه أجده وهو يتحرك من الماضي إلى الحاضر فيدمج أفعال الشخوص وتصرفاتها بحرية تامة فهو حر لا يخضع لأي قانون جامد.. وفق رؤيا مضطربة تتسم بالتبعثر والتشتت الدلالي.

قالت أماني: قريبها..!

قالت الزميلة: من المشرفة.. أكثر.. من خلال ما تم إنجازه في البحث أراه يسعى إلى تحقيق مدلول معين علينا فهمه عبر وعي الكاتب الذاتي والموضوعي بالواقع الاجتماعي والسياسي عندما اكتشف بطل الرواية أن أسرته كانت معارضه للسلطة فتناثرت بين الداخل والخارج بألقاب مختلفة.

قالت أماني: يعني؟

قالت الزميلة وهي تضم ذراعيها إلى صدرها: التغيرات التي تمارس على الكتابة القصصية والروائية كنص أدبي في أعماله ثرية كمرجعية اجتماعية وسياسية.. على فكرة الدكتورة سعاد عانس ولها بحث قيم يستعرض مجموعاته الشعرية.

فتح باب الغرفة أطلت عواطف التي كانت في السوق، قبلتها ابنتها أماني واحتضنتها زميلة أماني وبلغتها تحيات أمها الراقدة في المستشفى بسبب وعكة حمى مفاجئة.

قالت أماني: أمي هذا كتاب يعجبك.

قالت الأم: لمن؟

قالت الزميلة: كاتب أعد بحثا عن أعماله السردية للتخرج هذا العام.. عقبال تخرج أماني.

قالت الأم: أخوك عامر مسافر بكره للدراسة.

قالت أماني: وأنا؟

قالت الأم: بعد تخرجك إذا وافق أبوك.

خرجت عواطف من الغرفة. أماني التي أغلقت الباب همست في إذن زميلتها بأنها تتمنى التعرف على الكاتب وبريق في عيني الاثنتين يتوهج معه أخذت أنامل الزميلة تعبث بخصلات شعر أماني التي استكانت مطبقة جفنيها خاضعة لمداعبات زميلتها التي انتفض بدنها من رنين جرس الباب الخارجي الذي تردد بقوة داخل جدران المنزل فقبلت جبين أماني مودعه وخرجت لتجد عواطف جالسة لوحدها في غرفة الجلوس المشتعلة بنور صاخب تقلب الرواية والتلفزيون يعرض بصوت منخفض مشاهد فيلما أجنبيا.

* * * *

الشاعر

هي مصادفة تحمل فلسفة الجبر في إعادة تبويب خياراتي وترتيب أوراقي المتحكمة في هذه الرحلة التي بدايتها مشاركة كشاعر في وفد ثقافي أكمل أسبوعا من الحراك الأدبي والفكري عبر ملتقى ممثلي الجامعات الحكومية في دمشق.

وكان أن رافقت أحدهم في رحلة بالسيارة إلى عمان لمشاهدة جزء من مهرجان جرش، وتمكنت من إيجاد حجز في رحلة جوية إلى القاهرة لقضاء أيام من سنة تفرغ علمي.

في المطار وجدت عائشة كانت برفقة ابنها الذي أنهى برنامجا طبيا في أمراض المناطق الجافة لمدة ستة أشهر، أرسلته للمشاركة فيه إدارة المستشفى الذي يعمل به وبرفقته زوجته وطفلان.

موعد السفر يقترب والابن مختف بين مكاتب المطار والأم والزوجة والطفلان ينتظرون في قلق. لما جلست على أحد مقاعد الصالة ركض الطفلان بشغبهما نحوي لمشاركتي الجلوس في المقعد

جاءت لنهرهم، وتبادلنا النظرات فابتسمت وأنا أحتضن اصغر الطفلين. سألته عن اسمه فتلعثم

قالت: محمد

قلت: هل أنتم في رحلة سياحة.

قالت: بين بين ..هذا ولدي محمود.

عرفت أن رحلتهم تأجلت بسبب نقص المقاعد إذ نسي الحجز لوالدته التي جاءت منذ أربعة أيام، وأقرب رحلة للقاهرة بعد يومين.

قلت: أتنازل عن مقعدي حتى لا يرتبك جدولكم وحجوزاتكم في القاهرة.

ناولته بطاقتي وتوجهنا إلى موظف الحجز الذي تمنع وأمام إصراري وافق بعد دفع ضريبة التبادل وتأجل سفري ليوم واحد.

في القاهرة نسيت الأمر وبعد أيام وأنا أجلس في مقهى بالهرم جاء صوتها الذي أعرف، كانت متجهة نحوي، شعرت بالحرج وكأس الخمر ينتصب على الطاولة، أحد أعضاء هيئة التدريس بالجامعة التي أنتسب إليها كرئيس لوفد يتعاقد مع بعض التخصصات للجامعة يشاركني جولتي السياحية ويرصد تأملي كمرافق، لما جلست نهض متشاغلا بمشاهدة الجمال والخيول التي يستأجرها الزوار.

قالت: ليه لم تتصل؟

قلت: انشغلت بمراجعة مطبعة لطبع كتابي الجديد.

قالت: كتاب علمي؟

قلت: ديوان شعر.

لم يطل مكوثها بعدما وعدتها بزيارتهم وعرفت مكان إقامتي ورقم هاتفي. في المساء رن الهاتف كانت عائشة وابنها يدعواني لحفل عشاء ساهر في كازينو على النيل، وإنهم بعد نصف ساعة سوف يجداني أقف عند باب البناية. بدلت ملابسي ومع تباشير الصباح كنت ألج شقتي.

تكرر اللقاء عرفت أنها أخصائيه اجتماعية ولما أصبحت أرملة تفرغت للعمل التجاري وناشطة اجتماعية في جمعيات مدنية ثقافية وإنسانية، ابنها طبيب متخرج منذ عامين ولها ابنة تعمل مدرسة كان زواجها منذ شهر.

بعد جولة في حديقة الحيوانات انسحبت حتى يمارس الجميع شغبهم بحرية، اتجهت أقدامي إلي مطعم الحديقة قدم لي النادل قارورة بيرة وأنا أتجرع كأسي الأول إذا بها تقف على راسي تابعتني وأنا اشرب صامتة ثم جلست طلبت من النادل كاس عصير فواكه طازج.

قالت: تشرب كثير؟

قلت مرتبكا: قليلا أزجي به الوقت.

قالت: علامات البؤس واضحة عليك.

قلت ضاحكا: اخصائيه اجتماعيه المهنة دساسة.

قالت: متزوج؟

قلت: لا

قالت: مطلق وعندك أولاد؟

قلت: مطلق لم يفرح بليلته الذهبية

توقفت عن الحديث وابنها وزوجته والطفلان يقتربون منا، تناولنا طعام الغداء ونهضنا أصرا على دعوتي للسهر معهم في سكنهم وتناول العشاء، رن هاتفي كان موظف المطبعة يطلب حضوري لمراجعة بروفات طبع الديوان، قرر الطبيب مرافقتي بعد إيصال أسرته للسكن لتجهيز العشاء، تأخرنا في المطبعة بين تدقيق أرقام الصفحات ومراجعة ألوان الغلاف. بعد العشاء نام الطفلان وأمهما وبعد قليل انسحب الابن فنهضت مستأذنا.

قالت: اجلس أبغاك في كلمه.

قلت: أمرك.

قالت: من يوم تقابلنا وأنت شارد الذهن تحمل هموم الدنيا على ظهرك.

قلت: أبدا عامل السن وشلل الطموحات.

قالت: عندك صديقات هنا؟

قلت: تجاوزت هذه المرحلة إنما أنا في سنة تفرغ علمي منذ شهر ومنشغل بتحديد موضوع اكتبه.

وأخذت الحوار إلى جانب أخر عرفت أني في الأربعين من العمر قبل عشر سنوات تزوجت وفي ليلة الدخلة وأنا وعروسي التي اختارتها أمي نجهز أنفسنا لمغامرة الليلة الأولى أقلقنا قرع شديد على باب الغرفة.

كانت أمي التي انهارت على مقعد بجوار باب الغرفة وأمسكت بكفي قالت: وهي تبكي إن العروس التي بعد لم تخلع ثوب الفرح أختي من الرضاعة؛ كشف ذلك حديث دار بين بعض الأقارب وهم يبارك بعضهم لبعضهم بتوفيقي وحسن اختيار أمي، وعندها جاء ذكر أسماء من تغيب عن الحفل فلما ذكر اسم إحدى الجارات تم ربط اسمي واسم عروسي بها كمرضعة ولما تم الاتصال بها أكدت ذلك وشهد بذلك إحدى الحضور، معها شيء في داخلي انكسر وانخفضت نسبة الهرمون في الدم وأدمنت شرب الخمر بسبب الصراع النفسي الذي تغلبت عليه ولم أتجاوز العجز الجنسي.

قالت: يعني فوبيا الخوف..!

قلت: لم أكن بريئا قبل الزواج، لكن بعد الحادثة توقف كل شيء.

قالت: جربت.

قلت: في سنوات الهروب نجحت في عملي وكونت بعض الصداقات غير أني لم أتجاوز الملامسة.

سمحت لي بالخروج مشيت على قدمي طويلا وأنا أعاتب نفسي على تحدثها في أمر خاص دمرني، حتى عثرت على سيارة أجرة أوصلتني لشقتي. لما فتحت الباب كانت الخادمة ترقد مكومة على مقعد أمام التلفزيون وقد انحسر ثوبها عن فخذها وتهدل صدرها وتبعثر شعرها، أخرجت قارورة الخمر من الثلاجة وشربت كاسي الأول والثاني، ومع تحركي تنبهت كنت أتفحص جسمها الشاب النحيل ولون بشرتها السمراء، مددت كفي أتحسس الفراغ وتوجهت لغرفتي تمددت في الفراش ونمت.

بقيت في الشقة يومين زارني فيهما زميل الجامعة مودعا للعودة للرياض، لم أهتم بتبليغه تحياتي لأحد، ولم يهتم بأخذ بعض نسخ ديواني الجديد التي أحضرها من المطبعة.

أصبت بوعكة حمى شديدة اعتنت الخادمة بي وأخذت ترد على الهاتف لأجد عائشة وابنها يفحصني تطلب من الخادمة إحضار أدوية كتبها لي. ودعني الاثنان لتعود عائشة بعد ساعتين للعناية بي، طال مكوثها وتكررت زيارات ابنها وزوجته والطفلين حتى خف أثر الحمى .

جاء الابن وزوجته لمشاركتهم رحلة للإسكندرية اعتذرت، ومعها استمزجت عائشة ابنها البقاء للعناية بي حتى عودتهم، بعدها منحت الخادمة أجازة ليومين وبقينا لوحدنا عنايتها ذكرتني أمي وأخواتي وجو الأسرة الذي فقدته في رحلتي، لم تمنعني من شرب كأس خمر مع الدواء الذي تحسب مواعيده، شيء في يتحرك وكفها تلامس جبيني بين وقت وأخر لمعرفة حرارة جسدي.

نحول جسمها ورشاقته خلقا التوتر في داخلي وتورد خديها واكتناز شفتيها وشعر رأسها القصير الممزوج بألوان مختلفة يدفعني لبناء قصيدة جديدة وأنا استمع لها وهي تقرأ قصائدي وأنفاسها تشعرني باني أتجاوز غصتي.

دفعتني للنوم بسروالي الأبيض الطويل وفانلة كم قصير بيضاء أصابعها تجس أضلاعي وتمس عضلات صدري كانت ترتدي قميص إحدى بجاماتي لم تغلق أزرته العلوية فتهدل صدرها وتلبس أحد سراويلي البيضاء القصيرة أنفاسنا تختلط في جنبات الغرفة وان أعدت فراشها للنوم في الغرفة الثانية من الشقة.

نزلت كفها على بطني وهي تجرعني حبة وأدوية منتصف الليل، صوت موسيقى هادئة ينساب من التلفزيون انحنت تضع كأس الماء على الكوميديون وضعت كفي على كفها والعرق يتصبب مني.

قالت: لم تتصبب عرقا.

قلت: الحمى.

قالت ضاحكه: آلمتني.

كنت أهصر كفها بقوة. جلست في الفراش قبلت جبينها رائحة شعرها أدرك نشوة مغيبة؛ لم يزعجها تصرفي بعفويتها أمسكت بذراعي وسحبتني خلفها وبغريزتها أخذتني إلى الغرفة الثانية ولبديهتها تعاركنا؛ مع الحس المشترك تحررت من التوتر والقلق والشعور الذي فقدت معه كل أمل فأطلقت ألانا لمواجهة اليأس وإذا بي اجتاح قلاعها في تجاذب خال من الضغط النفسي. لم أشعر بالخوف من الفشل.

في الواحدة ظهرا تنبهت من النوم استرجعت ما حدث غادرت الفراش لم أجد أحداً في الشقة شعرت بانقباض متوهما أنه حلم بسبب الخمر فجلست على أحد مقاعد غرفة التلفزيون أقيم الموقف بدون ضغط ووساوس ليفتح باب الشقة كانت عائشة تحمل بعض المعلبات والخضار، لما لمحتني قهقهت بصوت عال ورمت علي منشفة حمام ملقاة على التلفزيون ودخلت المطبخ.

قلت: هل حدث أمر

قالت: نعم.. الذي بدد الأمور المترسبة في أعماقك.

قلت: يعني.

قالت: كل طرف من جسدي وبذاتي تفجر، انهمر المطر كما شلال معه سالت الأودية وأنساب الماء غدقا في صحراء امتدت إلى ما لانهاية.

دخلت الحمام الماء المنسكب على جسدي نفض قلقي ونحن نتناول الغداء اقترحت الخروج للتجول وحضور عرض مسرحي بعده نحتفل بتجاوزي وعكة الحمى بعشاء في مطعم احد الفنادق ننعم فيه بلحظة مرح مع الموسيقى والغناء.

سافرت إلى لندن مواصلا رحلتي العلمية ووجدت الموضوع الذي أبحث فيه فأنجزت هدفي وعدت للرياض قبل نهاية سنة التفرغ بأيام .

في حفل خاص احتفل بعض الزملاء بعودتي وبديواني الثاني الذي وصلت نسخه منذ أشهر وتناقش الأصدقاء حول دراسة قدمتها زميلة في قسم البنات تخصصها أدب إنجليزي فتت النصوص وسلبتني وعيي الشعري ومقدرتي في كتابة نص يحمل قضية إنسانية وأن قصائدي مجرد وصف بلاغي ونظم روحه

الشعرية غائبة عن مقاربة ظواهر الحياة البشرية وخصوصا علاقة الإنسان بالطبيعة، في مقارنة مع بعض النصوص الشعرية في الأدب الإنجليزي مستشهدة بما جاء في مقال لها عن ديواني الأول وتقبل الساحة الأدبية بصحافتها ومنتدياتها له. ولما خلوت مع نفسي بعد عشاء دسم أعدته الوالدة تطرقت فيه إلى زواجي وحلمها بمشاهدة أحفادها مني خطر لي الاتصال بالزميلة التي جاء اتصالي متوقعا كما تقول لمناقشتها في ما جاء في الدراسة عن ديواني الثاني وتطور موهبتي الشعرية.

قلت: تتزوجيني يا سامية؟

لم ترد اعرف إنها تجاوزت الثلاثين منشغلة عن من حولها بأحلام ومشاريع معها كانت ترد كل متقدم للزواج حتى عرفت بالراهبة كغلاف مراوغ لوصف العانس.

قالت: نعم.

في سرية تامة حسب تخطيط الوالدة الذي اتفق مع هواجس سامية جرى كتب الكتاب في منزل أخيها رجل الأعمال الناجح وأخذتها إلى غرفة بفندق مميز بخدماته جاءت الليلة الأولى باردة وفي الثانية تغلب عبثنا على توترنا فاقتحمت قلعتها فاتحا أبوابها ومشرعا نوافذها التي أغلقتها متناسية أنوثتها ونداء الطبيعة فتراكم عليها الغبار وأغصان وأوراق نبات متمدد جفت عروقه.

بعد أشهر ستة أعلنا زواجنا في الجامعة والمجتمع معها توقف تداول حكاية شذوذي واني مثلي غريب الأطوار في داخلي نزعة استبداد، لعلاقة مع فتى فلسطيني والده يعمل مديرا ماليا في شركتنا التجارية المتعددة الأغراض، في أيام الدراسة بالثانوية شاركني في بعثة توسط والدي له لمرافقتي معها فضل الاغتراب وبدل جلده، كانت متداولة ولم تصلني ولكن الزميلة والزوجة روتها لي وذكرت إنها تطرقت لها في مقالها منذ أربع سنوات عن ديواني الأول.

* * * *

العرجاء

لم تلمس أن الأمر تجاوز حدود السيطرة، ولكن أن تحلم في منامها بذلك فهذا يدفعها إلى إعادة تشكيل ذاتها، لكن الرغبة تبرز تلك المشاعر التي لاشيء يملؤها؛ وهي التي شغلت فكرها وجهدها في تكوين صورة المرأة الجادة المنتجة والتي أولها من حولها تعويضا لعرجها وبقايا حساسية مفرطة من سن المراهقة سرعان ما تنخدش، وفقدها لمسحة الجمال التي منحت أخواتها الأربع والأصغر أزواجا كاملي الصفات والخلق، فكرست جهدها للعناية بوالدها رجل الأعمال الذي أنهكه المرض فأصبح تحركه بمقعد ذي عجلات وسائق أصبح كأحد أفراد الآسرة.

الصباح في عملها الحكومي وفي المساء تقضي وقتها بين ردهات مبني مركز الخدمات الأسرية بالحي وثلاث ليال في الأسبوع تمارس الرياضة بين صالات نادي رياضي للنساء.

فاتحها رئيسها في العمل في الزواج في نهاية اتصال معتاد في شئون العمل تطرق فيه عبر سؤال عن القيم الحميدة التي يتصف بها عضو الأسرة الجديد، تعرف انه متزوج ولديه أسرة كبيرة جاء ذلك بعد زواج أختها الرابعة وابتعاث أخيها الثاني للدراسة في الخارج بينما عمل شقيقها الأول يحتم سفره المتواصل.

ناقشها والدها في مطلب رئيسها وموافقته أن تبقى في منزل الأسرة مع تحديد موعد لزيارته لقضاء بعض الوقت معها كزوجة، ترددت ولكن أمها أقنعتها بأن الأمر طبيعي لفتاة عانس وصلت الأربعين وأنه منتشر في المجتمع ومن حقها أن تنهي ذلك وقت ما تشاء.

قضت الليلة الأولى في غرفة بفندق، فيها دفعها زوجها لتجرع مشروب لم تستسغه إنما مع الحديث والعبث انتشى كل جزء في داخلها فلم تهتم بما حدث تنبهت في الظهيرة من خدرها فدخلت الحمام غمرت المياه جسدها ليفتح باب الغرفة كان زوجها تناولا الغداء في مطعم الفندق وفي المساء عادت لمنزل الأسرة.

قال السائق وهو يوصلها صباحا لمقر عملها: ماما من هذا؟

قالت: زوجي.

قال: مبروك.

ذات مساء تأخر الزوج عن الحضور في موعده الأسبوعي، جاء هاتفه معتذرا أن أحد أولاده مريض وهو معه في المستشفى وطلب منها عدم الذهاب للعمل حتى يتناول الإفطار معها. في العاشرة صباحا حل متوترا وبقي حتى الواحدة ظهرا.

قال السائق: ماما هذا زوج مجنون.

قالت وهي تضحك على غير عادتها: ليش! ..

قال: كلام كثير بطال!

عرفت أنه زار والدها في مكتبه التجاري.طلب منه مبلغا من المال كسلفية حتى ينهي بناء منزله الجديد في شمال الرياض يسدده على أقساط. أثناء حوار تجاوز فيه حدود الأدب.

على طاولة العشاء في مطعم منتزه خارج المدينة فاتحها زوجها عن ضائقته المالية وطلب منها أخذ قرض باسمها من البنك الذي تستلم راتبها منه بضمان الراتب. لما شعر أنها مترددة كمل مسوغات القرض وأخذها إلى الفرع النسائي لتوقيع الأوراق.

أخبرت والدها بالأمر ابتسم، لما طال صمتها اشتد ضحكه فشعرت بالاطمئنان.

في المساء وهي عائدة من المركز الرياضي فاتحها السائق الذي أنهى سنته العاشرة في العمل عند والدها برغبته في السفر لبلده. شعرت أن جزء من كيانها انفصل فلم تفاتح أحدا بذلك.

قال والدها: السائق يطلب اجازه شهرين.

قالت أمها: حقه يشوف أهله.

قالت: وأنت؟

قال والدها: يقوم بعمله أحد العاملين بالمكتب.

لم تنم ليلتها، ولما جاء زوجها لم يلاحظ انشغال ذهنها وارتباكها، وفي طريقها الصباحي للعمل لم تنبس بكلمة وهي التي تثرثر عندما تكون في السيارة وقد غابت معالم الطريق، محدقة عبر غطاء وجهها الشفاف في مرآة السيارة الأمامية حيث يطل جزء من وجه السائق.

جهز السائق أوراقه وحصل على تأشيرة خروج وعودة من إدارة الجوازات لمدة ثلاثة أشهر كانت تتابع ذلك بصمت من خلال حديث والدها واستفسارات والدتها البليدة عن البديل الذي يستطيع تحمل طلبات المنزل والزوج المقعد.

قال السائق: بعد ثلاثة أيام السفر ماما فين الهدية؟

قالت: ما في هديه ليه مستعجل؟

قال: ماما أنت زعلان.

قالت: ليه زعلان أنا تعبان بس.

قال: ماما أنت لازم يتونس!

قالت: تونس كيف؟

في السابعة ليلا وهي في طريقها للمركز الرياضي بملابسها الرياضية غير السائق مساره، اتجه إلى طريق تعرفه، ولكن في هذا الوقت لم يكن مطلبها لم تنبس بكلمة حتى لاحت استراحة تملكها الأسرة في شرق الرياض، ترتادها نهاية كل أسبوع وفي المناسبات العائلية والأعياد تعرف أنها في هذا الوقت خاليه من الحركة.

قالت: هيه؟

قال: ماما أنا قلت لازم يتونس.

قالت: ما فيه أحد!

قال: ماما من غير زعل لازم يتونس.

فتح مدخل الاستراحة وادخل السيارة شاهدته ينزل من مؤخرة السيارة سلة بها قناني ماء ومشروب ترجلت من العربة، وقفت مرتبكة ناولها قنينة ماء صغيرة تجرعت بعضها.

شل تفكيرها نسيت هاتفها القابع في محفظتها الصغيرة المعلقة على كتفها، أنفاسه حولها كون حديثه عن السفر غمامة بيضاء، انسكب ماؤها أوراق سوداء تنهمر عابرة فركض غيرها مبتهجا بالضجيج؛ أمسك بذراعها تحركت خدرة شيء في صوته يدفعها إلى الاقتراب أصابعه تعبث بشعرها أبوابها تنفتح بابا باب ودرفات نوافذها تصطفق بسبب ريح عاصف انبعث من داخلها.

في الحادية عشر ليلا عادت للمنزل أسرعت إلى غرفتها تمددت في الفراش الظلام يحيط بها وصوت أمها وأبيها يصلها غابت عن الوعي نامت بملابسها وبعد عناء صحت على صوت أمها الغاضب.

بدلت ملابسها كانت الساعة العاشرة صباحا تأخرت عن موعد العمل مع كوب الحليب رن هاتفها كان زوجها يستحثها لوجود مشكلة حدثت في الدائرة التي تشرف عليها.

في السيارة وبعد تجاوز عدد من الشوارع وعند الإشارة الأخيرة التي ينتصب بعدها مبنى القسم النسائي الذي تعمل به اكتشفت إن الذي يقود السيارة السائق الجديد.

* * * *

الخلاص

في مطلع السنة العاشرة على إدخالي مستشفى شهار جاء من يخرجني، إذ دعاني مدير المستشفى لمكتبه وأخبرني أن أمي وأخي حضرا ووقعا محضر الخروج الذي تأخر توقيعه خمس سنوات بعد تجاوزي المرض الذي أدخلت بموجبه المشفى بسبب تعاطي الحشيش وحالة اضطراب مجهولة معها كنت أصرع.

لما خرجت من المشفى تذكرت أنني بدون أخ، فأنا وحيد أمي، ولما بلغت السادسة توفى والدي، وبعد عام تزوجت أمي وجاءت أختي مضاوي، فكرست حياتي لرعايتها حتى كان زواجها.

أخذت سيارة أجرة إلى منزلنا القديم في حارة الشرقية لأجده تغير شكله ويشغله من لا أعرف، مشيت على قدمي متجها إلى منزل خالي فكان مغلقا.

اخبرني رجل عجوز يفترش مدخل الدار المقابل أن البيت مهجور منذ أعوام.

قال العجوز: أنت غريب.

قلت: كنت مسافرا وهذا بيت الخال.

قال العجوز: وأهلك وين؟

كنت أفتش حقيبة ملابسي الصغيرة وأوراق هويتي وملفاً عن حالتي الصحية، برز ظرف عليه شعار المشفى، فتحته به ألفا ريال جزء من مكافأة قيامي ببعض الأعمال داخل المصحة بعد تجاوزي حالتي وتأخر من يحضر حتى أخرج.

بعد شرب القهوة مع العجوز واصلت تجوالي، وشيء ينبثق من أعماقي متذكرا أسباب دخولي المستشفى. كانت أمي، فقد شهدت مع أختي على ادعاء أني اعتديت عليها واغتصبتها، كان ذلك بعد عام من زواجها؛ وتجلت الحقيقة، كانت أختي على وفاق مع ابن الجيران قبل زواجها ولما تزوجت الرجل الذي اختاره لها إخوتها من أبيها، لم تقطع هذه العلاقة التي تتم خلسة عندما تزورنا،

فصادف أن عدت من سهري مع الأصدقاء؛ لأجدها في غرفة الضيوف مع عشيقها، وتكوم الناس لأجد نفسي ممددا في غرفة الحوادث بالمستشفى العام ملطخا بالدماء واتهام لم أتوقعه فأصبت بالصرع والتشنج مما أدخلني مستشفى الصحة ألنفسية.

عزمت على السفر إلى جدة بحثا عن حياة جديدة، في سيارة الأجرة خطر طرف من طفولتي لما تزوجت والدتي، عملت خادما في منزل تاجر تزوج للمرة الثانية من أرملة ثرية لم ترزق بولد فكانت ترعاني كابن لها وتساعدني على استذكار دروسي، وفي العام السادس من الخدمة استولى إخوتها على نصيبها من الإرث بما فيه المنزل الذي تسكن؛ فنقلها زوجها إلى منزله مع زوجته الأولى فتم الاستغناء عني.

في ثنايا ملف الأوراق عثرت على مظروف آخر بداخله عشرة ألاف ريال وورقة صغيرة مكتوب فيها (هذا نصيبك من ميراثي لقد بحثت عنك بعد وفاة زوجي وعرفت أنك بالمستشفى فقررت أن أكفل خروجك وأسلمك نصيبك حتى تبني حياتك من جديد.. عبير).

تذكرت أن مدير المستشفى قال أن أمي من كفلني لكن من عبير.. ! قلبت أوراق الملف بحثا عن صورة تقرير الخروج لأجد أن الموقعة عبير وأمي اسمها نوف شيء في داخلي ارتبك ولم أنم جيدا بسبب الهواجس والأحلام.

في مدخل حي شعبي فتحت دكانا للمواد الغذائية ثم قمت باستئجار جزء من منزل في وسط حي مهجور وفقير تقطنه عمالة وافدة للسكن، وبسبب وعكة حمى لم أغادر غرفتي هذا اليوم، فضلت البقاء في الفراش ولما حل الظلام لم أشعل النور بحثا عن السكينة والهدوء.

صحوت على دبيب وبصيص نور يتحرك وصوت غناء خافت ينساب بين جدر المنزل ورائحة بخور، غادرت الفراش؛ النور يعم الدار ورائحة البخور والغناء يأتي من المطبخ لأجدها تعد بعض الأكل والمشروب بثوبها الأبيض الذي أعرف مع غطاء الرأس ووجهها المبتسم. تصلبت أطرافي، تقدمت مني طوقتني بذراعيها، أنفاسها تعيدني للحياة، تذكرت إني كنت أنام في غرفتها عندما يكون

زوجها في منزله الأول وأنها تقوم بتعليمي الكتابة وبتحفيظي جزء عم، وأردد معها أية الكرسي قبل النوم.

* * * *

الفندق

في رحلة استجمام خمسة أيام إلى القاهرة ذات شتاء بعد توقيع عقد عمل مؤثر، عندما كنت أجلس في صالة استقبال الفندق الذي وجهت إليه سائق سيارة الأجرة، لفت نظري امرأتان وطفلة تتبادلان الحديث ونادل الفندق يناقشهما في طلباتهما، إحداهن وهي الصغرى بين وقت وأخر تلوح بهاتفها الجوال، وبعد ما يقارب نصف الساعة جاء رجل ومعه شابان انظما للمجموعة النسائية فتلهيت بشرب القهوة متريثا تحرك المجموعة.

ركزت نظري بعض الشيء على ملامحهم محاولا استراق السمع لتحديد هويتهم، جاء أحد موظفي الاستقبال يدعوني للغرفة التي تم حجزها لي طلبت منه إحضار حقيبتي من السيارة ونقدت السائق أجرته وهو يعلن استعداده للبقاء في خدمتي.

في هذه اللحظة نهض النسوة ومرافقوهن عند حضور آخر عرفت من نادل الفندق أنه دليلهن الذي معه تتم أعمالهن، نست الفتاة هاتفها على الطاولة بسبب استعجال الآخرين واختلاط إشاراتهم التي توضح عمق المشكلة التي يناقشونها، قمت وأخذته مقلبا أرقامه وخطر لي الاتصال على هاتفي منه لمعرفة رقمه تركته مفتوحا لثواني مستقبلا إرساله ثم أغلقته واتصلت عليه في شغب مجنون وتركته بارزا على طاولتي، وإذا بالفتاة تعود للبحث عن هاتفها، تركتها قلقة ثم لوحت به لها أخذته مبتسمة.

صعدت لغرفتي ورتبت ملابسي وقضيت بعض الوقت في مطعم الفندق ثم عدت متأخرا لغرفتي، ونمت ليوقظني من النوم رنين الهاتف كانت العاشرة صباحا، سألتني عن اسمي وكيف وصل رقمي لها أخبرتها أنني الذي تركت جوالها له حتى يتعرف عليها، كما أخبرتها أنني لم أفطر وباسترخاء وسذاجة قلت:إن الوقت مبكر عرفت أن والدها مع زوجها يكملان تسجيل أخيها في الجامعة وأمها وأختها الصغرى في مطعم الفندق وأنها أيضا لم تتناول إفطارها.

حضرت لغرفتي سألتها عن نوع إفطارها وأنا ألوح بلائحة خدمات الغرف، فتحت ثلاجة الغرفة وتناولت قارورة الو سكي التي لم أفتحها، ضحكت وجلست على المقعد المقابل حول طاولة الغرفة وسكبت قليلا من القارورة في كأس تجرعته بسرعة، عرفت أنها تذوقت المشروب عندما كانت طالبة في الجامعة من خلال زميلة أمها فرنسية، تتباهى بأن في منزلهم الكبير جناح خاص بالضيوف خزنته بها مشروبات منوعة تفتح في المناسبات.

سألتني هل تصب لي وهي تلوح بكأسها هززت رأسي وخاطر غائم يقول: (أنني أحتاج فقط إلى الهدوء ودفن ذاتي بعد ليلة قضيتها مسهدا) موافقا؛ فسكبت قليلا في كأسها وقدمته لي، جيء بالإفطار وبين الموسيقى الصادرة من التلفزيون الذي فتحته والأكل البطيء عرفت أنها سوف تبقى أطول وقت ممكن.

ونحن نشرب الشاي، أخذت تهز رأسها على أغنية أجنبية يبثها التلفزيون متفحصة ما حولها لفعل الصواب بينما كنت أتمتع بظرفها وحراكها المرح لبعث لذة جديدة في شراييني.

في ثرثرة تتجاوز حدود طاقتها لكي تصب شكواها أدركت أن ذلك سوف يكلفني صفاء رحلتي؛ هدأ من استرسالها انفراج البرنس الذي ارتديت على ملابسي الداخلية أصابع كفها البضة بترف تلامس ركبتي عندها انتصبت واقفا منكرا حقيقة الموقف وخافقي يصطفق ريبة، أطبقت جفنيها، ولأنني أعرف الوجوه (رأيت وجها تحت طلاوته الظاهرة حزن عميق) فصيرت قلبي الميت عطوفا وكما يطوي البحر جدولا منحدر إليه طويتها.

طلبنا شاي آخر وبقينا نتحدث حتى الثانية ظهرا ليرن هاتفها، كان والدها يخبرها بعودتهم، تمهلته بعض الوقت وفي الرابعة عصرا غادرت الغرفة شعرت بالخجل قاومت نوبة بكاء رددت وأنا أمسح دمعة انفطرت عنوة (لكن هي الحياة العمياء ووقائعها غير المحتملة) أخذت غفوة ثم دخلت الحمام وبقيت في المغطس طويلا استعيد نشاطي مفكرا في أمري فمع كل ما كنت عليه من فقدان للقدرة كنت أواصل السير بلا نهاية في مشاريعي التجارية وقد نسيت لغة العالم الذي أتيت منه (فانا ذات معطلة اجلس بين النهايتين البداية المعطلة والنهاية المعروفة والمحددة) وفي التاسعة ليلا أمن لي الفندق سائقا وسيارة للتجوال حسب برنامج

سياحي أعده مكتب السفريات الذي جدول رحلتي، ولما عدت في الصباح وجدت عدداً من الاتصالات على هاتفي الذي تركته في الغرفة.

بقيت يومين أشغل نفسي بالتجول والتسوق ليلا والنوم نهارا، فأنا أعرف يوم موتي فأحببت كآبتي، اجتاحتني الهواجس فأخذت أحدث نفسي كمن تلبسه السحر وبلا حيلة وفي ذهول شعرت أنني لا أمتلك شيئاً وقررت البحث عن من يشاركني ما تبقى من رحلتي فقادني تفكيري إلى ممثلة سينمائية مشهورة وجدتها في مطعم الفندق تتابع مع فريق عمل تصوير مشاهد فلمها الجديد الداخلية في الفندق.

في الرابعة عصرا وأنا أعيد تفحص أوراقي منتظرا اتصالا من أحد موظفي الفندق عرف رغبتي إذا بباب الغرفة يقرع كانت الفتاة، دخلت ولسوء الحظ عرفت أن سفرها بعد ساعات، طوقتها بذراعي وأنا على وشك البكاء تجاوزنا لحظة البوح في أتون تقارب لم يكن في الحسبان وهي مودعة طبعت قبلة على جبيني، ولما اختفت قلت وأنا أحدق في وجهي المقطب المرسوم أمامي في مرآة الغرفة؛ أمن الممكن أن يبلغ بي الضعف هذا الحد.

وأنا أبحث عن منشفة حمام حتى أدس جسدي في المغطس تحت وابل الماء متخلصا مما علق بي من حزن وكدر وجدت وشاحها المرصع بالخرز الملون على الأرض أخذته ودسسته في درج الكومدينو وغفوت في نوم عميق.

رن جرس هاتف الفندق أخبرني الموظف أن الممثلة التي أنهت تصوير بعض اللقطات تنتظرني في مقهى الفندق، جاء ترحيبها مزعجا ولكن تفاصيل جسدها الممتلئ جعلني أتحمل هدرها وبعد تجرعها كأس المشروب الذي أحضره النادل نهضت أمسكت بكفها وسحبتها خلفي في المصعد طوقتها بذراعي، كانت تقاوم بقسوة (غير أني رغم أن الخوف ينبض في جسدي كنت أراهن على فتح مغاليقها) استمررت العبث فلامست صدرها المكتنز.

في الغرفة لوحت لها بقارورة الخمر تناولتها وتجرعت من فمها جرعات عطشى، أعرف أنها في مقابلاتها الصحفية تدعي أنها عذراء وتبحث عن زوج مناسب وأن قطار الزواج لم يتجاوزها إنما لم أترك مكانا في كيانها لم أجتاحه

شبقها ومطالب بدنها توافق مع رغبتي في امتلاكها لننهي نشوتنا بعشاء متأخر أحضره نادل الغرف.

تناولنا الطعام ثم اتصلت بهاتفها أخرجت من محفظتي مبلغا كنت قد عزلته في مظروف من مغلفات الفندق حسب طلب الموظف ودسسته في حقيبتها اليدوية.

في الثانية ظهرا أخبرني موظف العلاقات العامة أن موعد مغادرتي أزف ولم يبق على رحلتي بالطائرة الكثير جهزت حقيبتي ودفنت وشاح الفتاه في احد أدراجها، وأنا انتظر السائق في صالة الجلوس وجدت الممثلة وفريق العمل يرتبون للقطة جديدة جلست في كادر المشهد بجوار الممثلة أثرثر بكلام غير مفهوم، ولما انتهى التصوير الذي لم يتجاوز دقائق لمحت موظف الفندق يدفع عربة حقيبتي نحو باب الفندق الذي تقف في فتحته سيارة الأجرة لحقت به وأنا أردد بصوت منخفض؛ من قتل الأوراق سوف يحفر قبري فأنا انتزع بعنف لقمة اللحظة الأخيرة متجاوزا حواجز الزمان حتى اركض في فضاء المكان.

* * * *

الطيّبة

الطائف مدينة السماء أقتلعها جبريل بعيونها وثمارها ومزارعها من الجنة وطاف بها حول مكة المكرمة ووضعها في مكانها فوق جبل غزوان حتى تكون ثمراتها وناسها حراسا للبيت العتيق الذي بناه إبراهيم عليه السلام وأسكن بجواره زوجه هاجر وابنه إسماعيل.

تبدل مكون المدينة المبني على التكامل الاجتماعي الذي تشكل ببناء السور في العصر الجاهلي في منتصف القرن الماضي، وبعد إزالة ما تبقى من السور المتهدم؛ لتضم النفوذ السياسي المبني على تميز المدينة بطقس صيفي خاص لم يسرق هذا النفوذ خصوصيتها التي كان أثرياء مكة يقصفون لهوهم في جناتها حتى لا يتضاعف الإثم.

وقلبها رأسا على عقب انتقال العسكر إليها فتبدلت خصوصيتها إلى خصوصيات متنافرة من خلال قيم ذوات الأنفار العسكريين لتتواءم مع الشعور بالغربة وقلق المنفى.

هذه الحال لم تنم في داخلي قدرة الانبعاث، فلم أبال بإشعاع التنوير الذي واكب التحولات فبقيت ذلك الطفل الساذج المتردد حتى وأنا أتجاوز العشرين من العمر ضيق الأفق فقير ماديا بمشاعر باهتة.

بعد سنة من حصولي على وظيفة حكومية بأجر يتوافق مع مؤهلي الدراسي المتوسط تشجعت والدتي على تزويجي بفتاة من الحي وافقت أسرتها أن تسكن في غرفة من منزلنا الطيني.

ومر عام فيه لم يظهر على زوجتي أن هناك ثمرة وليد قادم وعلامات حمل، فدب الخلاف، تكررت الفتنة في العام الثاني الذي فيه قمت باستئجار دور أرضي يحوي ثلاث غرف ومطبخ وصالة جلوس في بناية من ثلاثة أدوار تسكن الدور العلوي صاحبة البناية المسنة العاقر مع زوجها، والدور الثاني يقيم فيه معلم فلسطيني مع أسرته، يعمل بمدرسة في ضواحي الطائف.

في الشهر الثالث على استقلالي جاء خال زوجتي للإقامة في الطائف ومع تطلعه التجاري وفكره الانتهازي في التدخل انبت فروعاً جديدة لشجرة الخلاف الذي كانت تتدخل فيه والدتي لتقريب وجهات النظر، ولكن الموت خطفها بعد وعكة حمى اختلف الأطباء في تشخيصها وهنا كان الطلاق.

بعد أسبوع من هجر زوجتي للدار جاءت كنت أشاهدها في مجلس أمي تتحدث كثيرا وتنشر المرح حولها تتواصل مع الجيران وتروج أمي عنها أنها من قريتها التي ترقد ناعمة في جزء أخضر من تهامة جبال السروات توفى عنها خالي بعد إنجابها لطفلة أخذها أهل زوجها الميت لما تزوجت آخر فرقته العسكرية انتقلت إلى الطائف مع باقي قطاعات الجيش.

والتحقت بالعمل كعاملة نظافة في القسم النسائي من المستشفى العسكري بعد أن وجد لها زوجها فرصة للعمل في المكان الذي يحرسه مع ثلة من الجنود، ولكن لتطلق في السنة الثالثة لعصيانها تنازل زوجها عن شيء من خصوصياته بعد تدخل رئيسه المباشر الذي شاهدها في ممرات غرف المرضى أثناء زيارته لزوجته التي تعسرت ولادتها فقد أغراه تبسطها وابتسامها وما تملك من جمال وترف في بدنها بملامستها ومحاصرتها بالهدايا التي شملت زوجها.

جاء طلاقها متوافقا مع انتقال رئيس زوجها لقطاع أخر، معه أمر بنقل زوجها معه لتكون تحت نظره واكتشفت إن زوجها أدمن تعاطي الحشيش وأن الرئيس الذي كشف أمره من خلال أخطاء وتجاوزات ارتكبها بعد محاكمة جرى نقله لموقع آخر خارج الطائف ففقد زوجها مكانته، وبالتالي جرى فصله من العمل ليكون بعد ثلاثة أشهر طلاقه.

ولعلاقاتها الجيدة داخل المستشفى ومن خلال بعض معارفها النازحين للطائف جاء زواجها الثالث من رجل بسيط له دكان في سوق الأثاث المستعمل، وبسبب الأتربة وجراثيم المواد التي يتعامل بها أصيب بمرض غريب بقي معه في المستشفى عدة أيام ثم واصل الرقاد في المنزل، مما أثر على الوضع المادي فقاومت المصاعب وأدركت مسؤوليتها.

في هذه الأثناء كانت والدتي ومن تعرف من الجيران يساهمون في تقديم العون لها وهي بالمقابل كانت تمنحهم خصوصية خدمتها في نطاق المستشفى الذي

تتفرد بما تملك من روح مرحة وشكل جذاب يتقبل عبث مشاغبين يرتقي طموحهم إلى حدود انتظار الأكثر.

وذات ليلة والطبيب يعاين زوجها في المنزل زرع شقيق زوجها الشك في البيت الذي معه تطاولت زوجته عليها ودعمتها شقيقة الزوج العانس التي اختلقت قصة أن الطبيب أخذ أجرته العالية، شيء آخر غير النقود فباتت ليلتها وحيدة في المنزل وباقي الأيام لتسري شائعة في الحي أنها موبوءة.

تحفظت والدتي في حضورها ولكنها رقصت في ليلة عرسي ولم تهتم بما يدور فلم تنتكس روحها المرحة ولم تفقد مع السنين ترفها وظرفها ووهج الحياة داخلها لتبقى المرأة الجميلة ذات الفتنة الخاصة.

قالت: زوجي سجن منذ أمس.

قلت: وآنت.

كانت كما أعرفها منذ عشرين عاماً لم تؤثر فيها السنين ولم تفقد بياضها ووهجها.

خلعت عباءتها ونزعت غطاء الرأس ليتناثر شعرها الأسود الكثيف.

قالت: هل تسمح لي بالبقاء حتى أرتب أموري.

قلت: الأمر أمرك.

رقدت في مجلس النساء ولما نهضت في الصباح خارجا للعمل، لم أجدها أدركت أنها ذهبت للعمل ولما عدت وأنا أحمل غداء شريته من أحد المطاعم وجدتها نائمة في فراشها، شعرها متناثر. يغطي جسدها ثوب نوم حريري أحمر يبرز مكونات جسدها البض، ذراعها إلى الكتف مكشوف وجزء من ظهرها الذي يتمدد عليه خيط حتى كتفها.

تركت الغداء على طاولة الأكل في المطبخ ودخلت غرفتي ونمت تنبهت على حركتها فقمت كانت بثوبها اللدن تعد الغداء وتجهز براد الشاي جلسنا متقابلين تصدم عيوني بين وقت وأخر بصدرها المكتنز الذي يهتز مع حركتها وحديثها

الذي استمر ونحن نشرب الشاي، عرفت أنها مكلفة بالعمل الليلي في المستشفى في السادسة خرجت.

وأنا أقف عند باب الدار حاملا الغداء تقدم مني.

قال: أنت منذر.

قلت: نعم.

قال: أنا زوج خالتك هذا الصباح أطلق سراحي بكفالة.

قلت: الحمد لله على السلامة.

دعوته للدخول فتحت باب المجلس مرحبا به، تركت الغداء على الطاولة ووجدتها نائمة وقد انحسر ثوبها عن فخذها وتناثر شعرها، جلست على مبعدة لتأملها متحرجا ملامستها حتى تقوم كانت ثواني مرهقة تعالت فيها أنفاسي مددت كفي أربت على كتفها العاري تحركت وفتحت جفنيها.

قلت: زوجك في المجلس.

قالت: من؟

قلت: زوجك.

كان زوجها السادس تركتها ودخلت غرفتي وحديث الاثنين يصلني، نمت لأجدها تجلس على طرف الفراش والغرفة تشع بنور ساطع.

قالت: تشبه خالك.

قلت: أنا لا أعرفه.

قالت: نحول جسمه أصابع كفه كل مافيك منه.

قلت: كيف مات.

قالت: نصيبي في الدنيا الذي مازلت أقاوم فقده.

قلت: والآخرون؟

قالت: حتى أبقى وفية له.

مددت كفي احتضن كفها الرابضة بجوارها فوضعت كفها الثانية عليها سرى في بدني تيارها الكهربائي، قامت وسحبتني خلفها لنتناول طعام الغداء الذي جهزته عرفت إنها اتفقت مع زوجها أن يأتي لأخذها بعد ترتيب أمر بيتها الذي أقفلته بسبب مطالبة صاحبه بأجرته ألمتأخرة وتكرار حضور أحد رجال الشرطة.

تركتها في المنزل لقضاء بعض المهام ولما عدت في التاسعة ليلا وجدتها قد أحضرت طعام العشاء وتجلس بثوبها الحريري الأحمر أمام التلفزيون كنت أقارنها بممثلة لفتت نظري في مسلسل عربي يتم بثه بعد أخبار التاسعة ليلا في القناة الأولى في زمن غابر.

بعد شرب الشاي تحدثت كثيرا عن زوجها السادس الذي تراه يشكل امتدادا للجدار الواقي من كلام الناس، وعادت للحديث عن خالي وابنتها التي تزوجت منذ سنتين، حولنا غمامة بيضاء وتراتيل ملائكة نورهم في عتمة الغرفة يتعامد علينا كفها تلامس كفي ونظرنا مركز على شاشة التلفزيون نام رأسها على كتفي أنفاسها تتصاعد صدرها مساحة من البياض تدفعني للركض، طوقتها بذراعي تلاقت رغباتنا دفنت وجهي في شعرها رائحتها العبقة ترغمني على الاقتراب أكثر مدت أصابعها فأغلقت التلفزيون نور وهاج يتسلل من باب المطبخ يمر بجوارنا إلى البعيد السكون يلفنا وأنفاسنا تتصاعد متعانقة، كفها تتجول بترف على جسدي كل أبوابها تفتح ونوافذها تستقبل تسللي المرتبك بسكينة تجرفنا رياح عاصفة فاجأني ضحكها الصاخب.

قالت: انك هو.

قلت: من؟

قالت: خالك الآن أشعر إني فقدته.

قلت: أتحبينه بهذا القدر.

قالت: نعم روحه هي التي أبقتني صامدة.

قلت: هذا ما أراه.

قالت: واليوم تجدد فيك (وبصوت متهافت يقطر حزنا وتعبا) لكنه انسل من داخلي حتى يمنحني إذن الرحيل.

التحمنا من جديد ترفها وإحساسها بالفقد لم يترك للنوم مكاناً حتى اقتحمنا الإرهاق لأتنبه على صوت جرس المنبه جسدي مغطى باللحاف قاومت التعب ودخلت الحمام استعيد نشاطي بالماء، وفي العمل لم يهتم الزملاء بتأخري وأنا أنجز العمل المعتاد، وفي الطريق شريت طعام الغداء تركته على الطاولة متوهما أنها نائمة، فدخلت غرفتي ونمت لأنهض مرتبكا على قرع الباب كان زوجها أدخلته غرفة الجلوس واتجهت للغرفة حتى أبلغها بمقدمه لم أجدها عدت وأخبرته.

نهض وهو يدعك جبينه محدقا من بين أصابعه في وخرج، دخلت المطبخ كان الغداء في كيسه وصحنه الورقي قد برد، أعددت كوبا من الشاي وجلست أمام التلفزيون أتابع ما تبقى من أحداث مباراة كرة القدم مسجلة في الدوري العام.

* * * *

العائد

تمت محاصرتي في المنزل بعد اجتيازي مرحلة الدراسة الابتدائية وفشلي المتكرر في المرحلة المتوسطة بحثا عن رجل مناسب، وفي هذه القيود التي معها غدوت انطوائية وجدت المتنفس؛ عبر قريبتي القادمة من الطائف الطالبة بالجامعة التي تنام عندنا هربا من السكن الداخلي، وحتى تقابل بعض أفراد أسرتها في زيارتهم للتسوق وعلاج مريض.

ذات ليلة تركت قريبتي فراشها الممدد في زاوية غرفتي والتصقت بجسدي، شيء من الابتهاج تسلل إلى كياني فاعتدتها أعوام أربعة بوعي الأنا، وعند تخرجها أخبرتني بأنها سوف تتزوج وتسافر للدراسة، بكيت طويلا فقدها.

في محل خياطة ومستحضرات تجميل لفت نظري إعلانه المتكرر في الصحف عن تطوير مهامه، التقيتها نظرة النعيم في وجهها، حسنة الخلق بضة منخفضة الصوت، تحدثنا كثيرا عن موديلات الملابس وطرق إبقاء البشرة حية وجاذبة؛ كان اقتحامها حياتي بدايته تدخلها في عراك اصطنعته مع عاملة تسرح شعري وتقلم أظافري، رفضت ملامستي عندما ألهبت أنفاسها شبقي الساكن. فأكملت إعدادي لحفل زفاف مدعوة لحضوره، وهناك وجدتها فواصلنا حديثنا العفوي المباشر والصادق.

بعد عام من اجتياحها لجسدي متوهمة أنها أرملة. وان كان الجميع يعرف أن زوجها الموظف الحكومي الكبير في السجن منذ سنوات خمس لقضية سياسية فصل بسببها من عمله وأغلق منزله، وجرى التحفظ على حسابه المصرفي، معها تعرفت على مسئول كبير في الشرطة اتخذها عشيقة، ولما تطاول غياب زوجها أسست المشغل حتى تنفق على ابنها وتستثمر وقتها.

استغربت كرهي للذكور؛ ولم تستوعب أن أشعر بعقده نحوهم سببها حجر والدي ثم إخوتي علي، حتى لا أتزوج من خارج العائلة، ورفضهم مواصلة دراستي وفكرة الانتماء للجمعية النسائية الخيرية وزاد استغرابها أنني تجاوزت

الثلاثين من العمر، فارغة لم أتمتع بلذة الجنس الآخر، فكنت أذكر أسماء بعض صديقاتي من محيط الأسرة.

ذات ليلة وهي في فراشي رن هاتفها النقال كان صديقها رجل الشرطة يخبرها بمقدمه، تجهزت للخروج فلحقتها أتوسل بقاءها، أخبرتني أنه يحمل أخبار سارة عن التحاق ابنها الحاصل على الثانوية العامة بالجامعة في الرياض.

لا ادري لم طلبت منها أن أرافقها ثم أقنعتها بدعوته للحضور فأنا أسكن بعد وفاة والدي في شقة رحبة بالدور الرابع من بناية أمتلكها مع إخوتي، ويشغل أحدهم الدور الأرضي بمتجر لبيع الأدوات المنزلية وجزء من الدور الأول مكتب لإدارة أملاكنا؛ ولن يعكر سهرتنا أحد.

جاء صديقها بعد شرب الشاي والتبسط في الحديث، دخل الاثنان غرفة النوم وبقيت أمام التلفزيون وإذا بها تطوقني بذراعيها وأنفاسها تلفحني تحرك نبضي، وأخذتني إلى الغرفة التحمت بي تهيج ماتبقى من كوامن تناسيت أن بالغرفة رجلاً وفي عنفوان لحظاتنا؛ إذ به يقتحم المحصن ويشرع أبواب المغلق فأخذت أبكي.

بعد أيام جاء اتصالها تعاتبني على غياب تلاطم فيه الحس المشترك مع اليأس، فأنا أعتبر نفسي مسئولة في تقبل الأمر كما أني مستعدة لتحمل اللوم، زرتها في المحل التجاري داعبتني بملامستها الطيارة لتسكن خوفي فتجاوزت هلعي وهي ملتصقة بي في سيارتها متجهين في أول زيارة لمنزلها.

تعودت إباحة جسدي لمن أجده عندها في لقاء تتزاحم فيه رغباتنا، متجاوزة رهاب الرجال فأصبحت أواجه إخوتي في مجلس الأسرة وأعارضهم في قضايا كنت لا أتدخل في مناقشتها.

توفى زوج صديقتي، وأنا أواسيها قابلت ابنها الذي أشاهده لأول مره منذ تعرفي عليها وأخبرتني أن صديقها رجل الشرطة عين سفيرا في إحدى دول شرق آسيا.

ذات صباح لمحت في مدخل العمارة فتى ملتح يتصفح إحدى الصحف، أخذ يتابعني بنظره حتى ركبت عربتي وعرفت أنه يلاحقني، أمرت السائق بالتوجه

إلى محل صديقتي التجاري أعرف أنها في هذا الوقت غير متواجدة، ولكن خوفي جعلني أزعج خلوتها.

قالت: أنها اعتادت هذه المراقبة في بيئة تجعل المرأة مسحوقة اجتماعيا .

جاءت وبدلت ملابسي خرجنا ركبت سيارتها وعدنا إلى شقتي.

* * * *

سمية

نفتش عن بعضنا الآخر، نحدق في فضاء من الوقت نرى في كل يوم عاما؛ ونحس أن ما نخشاه في عظامنا هو الكذب ينثرنا عبر متاهات أزلية تأتي من الضياع حيث نموت ببطء؛ أي ومض أعمى يمزق لوعتي دونما قبل أو بعد أو متى لا يتخلى ولكن أقف منه على الجانب الخطأ من المرآة وهو يبتدع أعاجيب البهجة المرتقبة.

متحذلق اعتاد الكذب وابتداع الحكايات المسلية التي تفضح حالته النفسية المأزومة بالإثم والضياع الذي ترسب في أعماقه لفشله، الاندغام في مجتمع يعامله بدونية وعلاقته الملتبسة بمن حوله؛ ومن هنا جاء ليكسب ودي وقد تخلى الجميع عنه، المرة الأولى حضر برفقة مندوب مؤسسة للنظافة والصيانة جرى التعاقد معها كمتعهد للنظافة؛ كمراقب على عمال النظافة في دائرتنا بالطائف بصفتي مديرا لقسم الصيانة، فأنا حاصل على دبلوم تمديدات كهرباء وتشغيل مكيفات من مركز التدريب المهني، وحجم العمل أكبر من مؤهلي في نظره.

وبعد شهر وبينما هو جالس يحاورني في العمل قال: انه قدم للعمل سائقا عند زوج أخته في مدينة مكة المكرمة فلم يطب له الاستمرار لعنت وقسوة الكفيل عليه وعلى أخته وقرر العودة لبلاده .

قال: لولا تدخل أختي التي سعت إلى نقل كفالتي لسيدة تعمل مطوفة للحجاج؛ كنت أوصل ابنتها لكليتها في الجامعة.

وفي يوم آخر طلب قرضا حتى يسدد قسط إيجار بيت أخته الثانية التي يسكن معها، فزوجها الذي يعمل ممرضا وسائقا بمركز طب أهلي يتحكم في نشاطه طبيب وافد وزوجته الممرضة راتبه لا يغطي حاجاتهم.

تكرر حديثه عن مشاكله وسوء الحظ حتى بعد استغناء متعهد النظافة في الإدارة عن خدماته بعد تذمر العمال المتكرر منه؛ فتنقل في عدة أماكن، كان ينقل لي أسرارها ومعاناته وهنا دعاني لشرب فنجان شاي في منزل أخته، فاجأني الشكل، هيفاء ممشوقة رخيمة الصوت لونها الأسمر مائل للبياض، تغطي جسدها

بثوب حريري لدن طويل، كمه الواسع إلى المرفق، لونه عشبي يوشيه خط زهور حمراء من الأعلى حتى مقاربة طرفه الأسفل، يبدأ من فتحة الصدر والثاني من الخلف؛ لم يكن هناك أحد سوى ثلاثتنا، فزوج أخته يستلم دوره في المناوبة الليلية وسوف يبقى في العمل حتى الثامنة صباحا، ثم اختفت سمية ليتحدث عن كفيلته التي قررت أن تنهي إقامته وترحيله.

طلب مني نقل كفالته ودفع رسوم النقل وأجرة تنازل كفيلته التي اتصل بها وطلب مني مخاطبتها وأقنعتها بالتنازل عنه، وتفاوضنا في قيمة الإجراء، عرفت أني أكلمها من هاتفه فطلبت رقم هاتفي للتفاوض ومعرفة شروطها، كتبت شيك بالمبلغ في اليوم التالي وغاب عني طويلا.

قالت كفيلته وأنا اكلمها صباحا من المكتب: انه مخادع!

قلت: ولم كفلته؟

قالت: حتى توافق أخته على ابني زوجا لبنتها.

قلت: وبعدين.

قالت: لما كفلته وأقام في غرفة حارس العمارة جاء أحد أقاربهم وتزوج البنت.

قلت: وولدك؟

قالت: وفقه الله ببنت الحلال لكن.

قلت: لكن؟

قالت: الملعون حاول إغواءها وقال أحد الجيران: انه رأها تخرج من غرفته.

قلت: وبعدين؟

قالت: لما عرف أننا كشفناه هرب.

وجاء صوته عبر الهاتف يخبرني بمقدم والدته للحج، وأنه استطاع إحضارها للطائف لقضاء بعض الوقت؛ وبعد أيام كان يجلس قبالتي في المكتب لأمر هام، أخبرني أن موعد سفر والدته أزف ولا يعرف كيف يوصلها إلى جدة لتسافر مع

جماعتها، كنت أتوقع أن يطلب سلفة من النقود لتجهيزها، ولكن فاجأني بطلبه قيامي بالمهمة وأن أخته سمية سوف ترافقنا.

عند باب المنزل عصرا وجدته، ولما ركبت المرأتان وعفشهم عربتي اعتذر عن مرافقتنا بدعوى أن الرجل الذي يعمل عنده لم يسمح له، وأن أخته تعرف المكان، منزل شعبي في شارع بن لادن من حوار الطريق، عرفت انه يهرب من شيء؛ لما وصلنا جدة قالت: إنها سوف تبقى حتى تسافر الحاجة التي لم تشاركنا حديث الطريق، فاتجهت إلى البحر وأمضيت وقتي في متنزه ومطعم اعتدت زيارته كلما قدمت إلى جدة.

أحضر لي مشهداً موقعا بالتنازل ونقل الكفالة من كفيلته، ويسعى مع مكتب خدمات بجوار الجوازات لنقل الكفالة، وانشغلت بأموري لينبهني هاتفه من قيلولتي بأن جاره الذي يسكن الدور الأول من العمارة التي يسكن دورها الثاني سوف يسهر عنده، ويدعوني لمشاركتهم العشاء.

في الثامنة ليلا كنت أطرق الباب، وجاء صوته من عند باب جاره، كانت المناسبة غير معروفة، ولكن قال إن جاره لما عرف أن أخته غائبة فضل أن يستضيفنا.

قال: (وصاحب الدار في المطبخ يحضر الشاي) ما رأيك في الولد؟

قلت: أي ولد؟

قال: اللي في المطبخ.

قلت: شاب.

قال: بس زوجته هجرته.

قلت: ممكن يكون سيئا.

قال: بعد عام لم يفجر مكنونها.

قلت: غريب.

قال: أبدا الولد مثلي.

قلت: (مرتبكا) نعم؟

قال: ألم تلاحظ ثوبه الحريري الضيق وشفا يفه ووجهه؟

قلت: المعنى.

ابتسم ولأن الأمر مقزز شعرت بالغثيان، زاد قلقي وشعرت أن النقص في حالة الوحدة ينبغي تحمله خلال اللحظة، ففقدت اعتدادي بنفسي ويداي مليئتان بالغبار استأذنت، نزل معي حتى أوصلني للسيارة، عرفت أن أمه سافرت وأن زوج أخته غائب لإحضارها.

لم يتوقف عن الاقتراض ولم يخبرني بما تم حيال نقل كفالته، ولكن رجاني نقله وأخته إلى مكة حيث إن زوج أخته الأولى مريض ويرغب في زيارته، لما وصلنا مكة تركني مع أخته في المنزل وركب مع أخته الأولى لزيارة المريض في المستشفى.

لما أحضرت الشاي سألتها لم لم تذهب معهما للمشفى.؟ فابتسمت وهي تشير إلى الداخل لم أفهم أمسكت بكفي وأخذت فنجان الشاي الذي لم أتذوق؛ وسحبتني خلفها لأجد رضيعا وأخر في الرابعة نائمين؛ تلاقت نظراتنا وشيء تشكل في تلك اللحظة، معه اختفى الكون فاختلطت وتلاقت رغباتنا تداعى المكان فسقطت عبر اللانهاية.

اعتبرت أن في الأمر إساءة، واجتاحني غضب جعل عظامي تصطك، لما عاد الجميع من المشفى عدنا للطائف وقد تيقنت أنه عرف أنني قمت بشيء، شعرت أنه يعنفني من غير أن استحق ذلك، التصرف كان سخيفا فابتسامتها حارة كقبلة والضياء يغمرها.

ماذا كانت تفعل وماذا كنت افعل؛ وسط هذه الخلوة الغرامية، فران الصمت الذي نقطعه ببعض الكلمات المبعثرة لإزجاء الوقت ووحشة الطريق، بدوت مذهولا تحت وطأة سحرها؛عرفت فيها إن أخته الأولى حصلت على الجنسية السعودية. وأن أخته الثانية سمية قدمت للحج منذ أعوام ثلاثة، وهي متخلفة بدون

إقامة وأن زوجها لم يتمكن من ضمها لإقامته لرفض المركز الطبي منحه الموافقة.

بعد عام من الكذب عرفت أن من يدعي أنها أخته انما هي زوجته وهو يرجوني كفالتها؛ فقد أعلنت وزارة الداخلية تعديل أوضاع المتخلفين من العمرة أو الزيارة والحج، فكان علي زيارته في المنزل لمعرفة المطلوب، جاءت وعلى وجهها ابتسامة صغيرة لامست بهدوء وثقة كفها كفي وتلاقت نظراتنا وهي تتداخل بنعومة في الحديث، طامسة تذبذب مع الخطر حتى تطوف في داخلي ذاتها ليتحقق اتفاقنا في حل مشكلتها، إنها تختبر صمودي وتمتحن ثباتي بعد أكثر من عام على مغامرة نسيت تفاصيلها شيء تسلل إلى أعماقي.

واصلت تهربي من دعواته للسهر أو تناول طعام سمية التي تحمله رسائلها لمعرفة أحوالي حتى كانت رحلة أخرى إلى جدة ترجلت فيها سمية عند جماعتها حيث قدمت والدتها للحج، وطلب مني إيصاله لمنزل أخته في مكة التي توفى زوجها منذ شهر.

قدمت واجب العزاء وتعرفت على ولدي المتوفى، الأول في المرحلة الجامعية والثاني في ثالثة متوسط وبناته الثلاث الكبرى قدمت من الرياض مع زوجها والثانية في الثامنة والثالثة في الرابعة، الأم في ثوبها الأسود يزيد من سمرتها وانكسارها، كل شيء حولي يشعرني أن مرافقي غير مرغوب فيه.

شعرت بالقلق فقمت مغادرا، لحق بي ترافقه أخته إلى الباب، نحيلة بشرتها السمراء تمنحها طاقة تتفجر أنوثة وغواية، شدت على كفي ممتنة زيارتي، لمحت وأنا أصهر كفها ابتسامة صغيرة على وجهها، أخرجت من جيبي بطاقة تحمل اسمي وأرقام هاتفي قدمتها لها تركنا أخوها مقتحما الشارع ليقف بجوار السيارة، نهمهم بكلمات مبعثرة نستعرض بفضول تتغضن ملامحه بلحظة صفاء في أمرها.

بينما كنت أقوم بعملي رن هاتف المكتب لم اعرف المتحدثة وبين الاعتذار والتردد عرفت أنها زينب أم بكر، أيضا لم اكتشف من تكون وجاء صوته يخبرني إنها أخته جاءت لقضاء أيام في الطائف وترغب في لقائي لأمر يخصها.

كانت أكثر بهجة وهي تحدثني بأن ابنها بكر تخرج من الجامعة، وأنها تبحث له عن عمل وان ابنتها المتزوجة سافرت مع زوجها الذي انتهى عقده مع كفيله ورجع للبلاد لفتح مكتب خدمات عامة طال جلوسنا للعاشرة ليلا ولما هممت بالمغادرة شعرت إنها تخفي أمراً فلم اهتم.

جاء كما هي عادته، أخبرني حاجته لقرض مالي، ورن الهاتف كانت أم بكر همست تطلب مقابلتي، ترددت وأمام نظراته أخرجت من جيبي نصف المبلغ الذي طلب فتركني أواصل حديثي جاء إصرارها مريبا فلم أتوان من إخبارها بموافقتي.

قالت: أنتظرك الرابعة عصرا في المركز التجاري بالشارع العام.

قلت: لن أتأخر.

لما أوقفت عربتي أمام المتجر المغلق لصلاة العصر لمحتها تخرج من شارع جانبي، فتحت باب السيارة لها تلفتت حولها وركبت لم تنبس بكلمة حتى غادرنا الحي كشفت وجهها. لا أدري لم شممت عرقها بدلا عن عطرها، ولم أتنبه للأصباغ التي تلون وجهها تطاول الصمت فتوقفت عند بقالة إحدى محطات الوقود لشراء مثلجات ومكسرات، ولما عدت كانت قد تخلصت من عباءتها فبدا صدرها الصغير وبنطالها الفضفاض الفاخر، وأيقونة صغيرة معلقه بسلسلة من الذهب تتدلى على فتحة بلوزتها البيضاء.

لم يعنّي التفكير فاتجهت إلى ارض امتلكها في شمال المدينة بمخطط الغرفة التجارية في حي الحلقة الشرقية قمت بتسويرها اخزن بها أدوات كهرباء ومعدات سباكة؛ لمتجر في شارع عكاظ تشاركني فيه عمالة وافدة ترخيصه باسم أمي. وبناء غرفة بمطبخ وحمام بشكل مبعثر حتى أتمكن من بناء منزل العمر عليها، ترجلت وفتحت باب السور حتى أدخل السيارة، ولما توقفت عند مدخل الغرفة ركزت نظري عليها اعرف حتى أخر نبضة في قلبي أن ما أفعله لم يكن الصواب ابتسمت؛ حملت مشترياتي ودخلنا الغرفة التي تناثرت محتوياتها بين تلفزيون صغير حوله أربعة مقاعد بينها طاولة وصحف وكتب وملابس وفي ركن انتصب سرير نوم مفرد.

جلست على المقعد المزجود فجلست بجوارها أشعلت التلفزيون كانت أخبار الخامسة تابعنا مجرياتها ونحن نهمهم بجمل متقطعة وجاء فاصل غنائي.

قلت: المطرب الذي يغني المفضل عندي.

قالت: حتى أنا.

قلت: أغانيه تدعو للرقص.

قالت: سوف ارقص.

أخذت تتثنى على أنغام الموسيقى رقصها المثير بدل رتابة وتحفظ المكان؛ وأنا أحضر المثلجات والمكسرات أغلقت باب الغرفة واقتربت منها أمسكت بكتفيها فرفعت رأسها أنفاسها تصهرني واندمجنا في قبلة طويلة، العرق منا تصبب، تدافعت في أعماقها ولما هدأ عراكنا أغمضت عينيها وهي تغمغم بكلمات لم استوعبها.

سبقتني إلى الحمام، سمعت الماء ينسكب؛ أخرجت زجاجة مشروب مسكر أخفيها في مكان أمن بين قناني ماء في براد متهالك بالمطبخ انتصبت على الطاولة بعد تجرعي من فمها قطرات أعادت الاستقرار إلى ذاتي المتوترة؛ولما فتحت باب الحمام ترتعش وكأن الموت يهددها تلمع ابتهاجا بسوادها، دثرتها بملاءة سرير مطوية بيضاء اللون صقلت سمرتها وشكلت تكوناتها الجسدية، راسي ممزق من الهواجس أتتبع المياه والرياح الهادئة.

قالت: لمن المكان؟

قلت: لي.

قالت: وهي تدعك ساقيها وهل تقيم هنا؟

قلت: اسكن في شقة بعمارة أمتلكها مع أمي في وسط المدينة.

قالت: وهل هناك شقق أخرى؟

قلت: نعم ثلاث مؤجرات.

قالت: لم لا تؤجر إحداها لأخي وتستفيد من خدماته؟

لم أرد مستمعا لرنين هاتفي فالأصدقاء يبحثون عني. أعرف أنهم يرتبون للقاء احتفالي بعودة أحدهم من رحلة عمل خارجية؛ أهملت الرد عليهم مكتفيا بتأملها مترقبا تجرعها لكأس أعددته حدقت فيه مليا ثم ازدردته مبتسمة، ظننت أخيرا أنني لن أستطيع أن أحتمل الحياة، أو أطيق الناس وأخوالي يرفضون الاعتراف بدور أبي في حياتهم فهو حضري مجهول النسب. بينما هم ينتمون لقبيلة وجماعة تملك الأرض والاسم؛ تربض مساكنهم بين الجبال في قرية يفصلها عن الطائف أكثر من مئة كيلومتر، يمر بها الطريق السياحي المز فت المتجه إلى بلاد زهران وغامد، كنت اشعر بالخجل فلم أشجع والدتي على اختيار زوجه من بينهم تاركة الأمر لي فقد أجد بين رفاق العمل من يرحب بي؛ فأنا أتنفس بعمق وقوة حتى أتجاوز الاضطرابات التي تموج في أعماقي.

قلت: اتصالك جاء فيه انك تحتاجيني في أمر.

عرفت أن ابنتها المسافرة لم يناسبها الوضع وترغب في العودة لكن زوجها يرفض وتطلب مني مساعدتها.

قلت: هل ابنتك سعودية؟

قالت: نعم ومولودة في مكة.

قلت: وزوجها؟

قالت: ابن خالي جاء للدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة.

ليقطع جرس الهاتف حديثنا، كان أخوها يبحث عنها، في الطريق وعدتها أن الحل قد يكون بيدي إنما يتطلب اتفاق ويحتاج إلى وقت.

قالت ونحن نقترب من مسكن أخيها: هل امتزجت سمية؟

السؤال المفاجئ ألجم لساني، حدقت في ثم ابتسمت؛ سؤالها عاد لينظم نفسه داخلها، صلحت غطاء وجهها وتدثرت بعباءتها ولما وقفت أمام بوابة المركز التجاري التي شرعت تعج بالمتسوقين الباحثين عن حاجاتهم في ليلة شتاء

معتدلة، غابت فيه بشائر الفرح والحياة اللاهثة المتفصدة عرقا للانقسام والتكاثر بسبب زمن توزع بين الفاقة ونداء مجهول المعالم؛ أمرتني بالوقوف أمام بوابة المنزل فسمية وأخوها يعرفان أنها معي وينتظران موافقتي على سكناهم في شقة من عمارتي.

تكرر اتصالها الذي عرفت معه أن أحد الأمراء كان يقنص في بلادها استعان بزوج ابنتها في تجهيز رحلته، فلما اطمأن لسلوكه استقدمه لرعاية إسطبل خيوله والإشراف على مزرعته في الدرعية. كما عرفت أن المرأة التي تكفل أخاها توفيت وان أخاها نقل كفالته لصاحب مدرسة أهليه بالطائف متزوج من ابنة المتوفاة.

هنا أخبرتها بإخلاء إحدى شقق عمارتي لسكنى شقيقها.

قالت: لكن سمية من يومين أنجبت ابنها الأول.

قلت: لم يخبرني أخوك.

قالت: انشغل بعمله الجديد الذي لن ينجح فيه.

قلت: اعرف ولكن سكناه في الشقة يجعله يستقر نفسيا.

قالت: من؟

قلت: أخوك غريب الأطوار.

قالت: هل عرفت أنه أغراني بمعاشرته فلما كشفه زوجي هم بترحيله.

قلت: معلومة جديدة.

قالت: اعرف انك ترعى أمك العجوز.

قلت: أجل ومعظم وقتها عند أخوالي في القرية.

بعد سنوات خمس من الحذر جاءت سمية لم يتغير فيها شيء، إنما زادت بهاء وضياء، اهتمت بخدمة والدتي؛ عنايتها خلق نوعا من العطف في أعماقها.

وفي الليلة الثانية لسفر والدتي إلى القرية حيث تشعر بانتمائها وحريتها بين المزارع ومكانتها بين أقاربها؛ جاءت سمية تتفقد حاجاتي، كانت تقف في فتحة باب الشقة تنتظر إجابتي، كانت تبدو لي وقد تغيرت كثيرا متيقظة تتوهج تملك قوتها وحضورها في وعي.

اقتربت منها وسحبتها إلى الداخل أغلقت الباب زادت سمنتها وتشكل جسدها نداوة وطراوة. تذكرت امتزاجنا أول مرة، أشعلت نيران رغباتها، أثرت شبقي واستجمعت قواي فتخالطت مطالبنا، حصرت نفسها ضمن بوتقة تشظت سعادتها فتفطرت لحظات شغفة.

قالت: آه كم أنا متعبة.

قلت: كنت مذهولا تحت وطأة السحر.

قالت: عليك أن تحترس.

قلت: ساعديني وحاولي أن تفهمي أكثر لا أحتمل الجهد العقلي.

قالت: انك تهذي.

قلت: لا تخافي.

تشكلت من الملاحظات المعتادة التي لم تحمل شهادة لحب متسلط عليها لكن الرغبة تبرز مقدار الجفاف الذي يمتح من نسيج النار اللاهبة واللمعان الخادع دفعها بعد تجاوز شعور انتابها بأنها منقسمة على نفسها إلى البقاء بجوار رجل فقد ظله.

قالت: هل أصلح لك شايا؟

قلت: نعم.

دخلت الحمام ولما انسكب الماء على جسدي دندنت مترنما بأغنية من أغاني مطربي المفضل، ولما فتحت الباب لمحتها تضع براد الشاي على الطاولة في غرفة التلفزيون كانت تدندن ذات الأغنية.

قلت: حتى أنت؟

قالت: نعم.

قلت: تعشقين مطربي المفضل؟

قالت: مصادفة فقط.

الله اعلم أي قصة نسجها ذهنها لما لامست كفي العابثة مؤخرتها عند الباب وأنا أمرر كفي على شعرها المتناثر لثوان فارغة، العرق يخز حاجبها بينما أصابعها الباردة تقوم بدسه تحت منديل أصفر موشى بالخرز الملون تلفه حول رأسها، ضغطت طرف المنديل على شفتيها.

قالت: وهي تحدق في فضاء الدرج هو يفضلها.

قلت: وغيره.

قالت: توقعت أنك تمارس الفعل الشاذ.

في تجليات أمي التي تطفح على السطح عندما تجدني أتابع باهتمام مشاهد فلم أجنبي تعرضه إحدى محطات التلفزيون همهمت، أن معمر لولا لونه الأسمر يشبهني كررت هواجسها بصوت مرتفع، فتوقف اهتمامي وركزت نظري عليها لتأمل تجاعيد الزمن وشعرها الأبيض المغطى بشال أسود لم يكن يشبه أي شيء.

قلت: معمر.

قالت: نعم انه أنت في طفولتك.

وارتفعت أنفاسها خفضت صوت التلفزيون حتى لا أزعج غفوتها التي تطول حتى أنهي سهري؛ فأقودها لفراشها.

* * * *

السور والكتب

عندما تمدد السور حائلا بين فرحي بالنجاح وغدر غسان الذي مزق روحي؛ وقفت في نافذة غرفتي الغارقة في الظلام أتأمل الأشياء التي كنت أراها بيضاء شفافة،فتحولت إلى الفراغ، التردد التخبط وتحسس الفروق. سورنا المحيط بالمنزل أجده اليوم أكثر علوا، كتبي وأوراقي المبعثرة على المكتب والمرتبة حسب فهم الخادمة في أدراج دولاب الكتب بالغرفة لم تعد تثر اهتمامي وقد أجابت بحياء على أسئلتي.

شعرت بالحزن الذي معه توقفت عن الرقاد عارية في فراشي؛ عندما كنت صغيرة عرفت روحي. وعندما كبرت اكتشفت جسدي: الحب للروح والشهوة للجسد فمنحته ثقافتي ووعي وقدمته لغسان بتوحيدي الخاص بسره ووجده وقلبي ومعه بدأت الأمور تتداخل؛ أخرجني صراخه. الأكبر في فضاء منزلنا الكبير، يزف خبر تعييني معلمة بمدرسة في ضاحية تبعد عن الرياض خمسين كيلا.

في الطريق إلى المدرسة كنا أربعا ثلاث معلمات جدد، تباينت ألواننا انتماءاتنا الاجتماعية ثقافاتنا، وسائق أسمر اللون تعاقدنا معه على نقلنا للمدرسة، ذات اللون الأسمر يسم الرابعة أخته سعاد تعمل موظفة إدارية بالمدرسة منذ عام، تطبع الخطابات وكشوف الطالبات على الحاسب وكل ما يتعلق بالمدرسة التي شاركت في تأسيسها.

اعتدت أنفاس زميلاتي كما لم أقاوم بهجة تعانق أصابعنا كتعبير نزق وثورة شبق ليلي في المقعد الخلفي للسيارة، في كل مشوار نقطعه، كان غسان يعربد في داخلي، لم تصل ثرثرتنا في الفصل الدراسي الأول إلى الغوص في ذاتنا، حتى جاء يوم عدنا فيه من المدرسة في التاسعة صباحا وقد أنجزنا عملنا فسمحت مديرة المدرسة لنا بالخروج قبل انتهاء وقت الدوام، قالت إحدانا لم لا نقضي الوقت المتبقي في التسوق.

اعتذر السائق عن انتظارنا وسعاد عن مشاركتنا جولتنا الحرة؛ ونحن نتجول تذكرت أنني نسيت حقيبتي في السيارة، ارتبكت كثيرا فبين أوراقي صورة غسان

مع برج إيفل، فرحنا ونحن نتجول ثم نشرب القهوة في مقهى المركز التجاري خلق الأمان.

مريم تتجلى.. كانت تأتي مع صديق وهي ترتب لمشروع زواجها، راشفة من منهل الحب الذي سكبه عليها، ولما وصلا مرحلة التوحد أخذها إلى منزل أسرته المسافرة لحضور مناسبة في جدة.. لا تدري كيف انقادت إنما تحكمت أنفاسه وقبلاته في لحظة عناق في جسدها وسالت الرغبات فكان الغرق.

ولما لم أجد من الكلمات ما يعزيها؛ طفا غسان على السطح كنت جري لأتسلق عالمه، جملة رصيدي نشرات وكتب صغيرة تتحدث عن النار منتظرة رقدة موتي، وعن الحياة أبحث من خلالها عن نفسي المتنقلة بين الظلام والنور تحت رعاية أمي وأبي ونشاط ثقافي بالمدرسة والكلية نمى فكري، وبمشاعر صافية ونقية يسوقني قلبي صوب مغامرة مبهمة. رسمت كل شيء بمهارة والخروج عن النص يعني تفلت حياتي مني الواحدة تلو الأخرى؛ أخذ يؤجج اللهب في بدني فاعتدت الرقاد في فراشي عارية، أتحسس شفاهي وأداعب جسدي بأصابعي.

قالت مريم: لم أفقد شيئا برحيله، فأنا متفوقة في الدراسة وبجانبي أمي الأرملة الغنية بروح العطاء ودهشة الأمومة؛ التي لم تتزوج حتى تحافظ على تركتنا وارثنا من أبي. راتب تقاعده الوظيفي يفي ومنزلنا الرحب فيلا حكومية في حي الملز الجديد حصل عليها والدي بصفته أحد كبار الموظفين،أنا أحد أولئك الهائمين على الأرض والبنت الوحيدة مع ثلاثة ذكور ابتعث اثنان لدراسة الطب والهندسة في أمريكا، والثالث دخل الجامعة.. سوف يتخرج السنة القادمة.

في الصباح عرفت إن حقيبتي اقتحم سرها، لم ارتبك واعتبرت الأمر يندرج تحت مسمى العادي ما دمت لم افقد شيء مدركة أن التفاصيل سوف تورق، في نهاية الفصل الدراسي الثاني اتفقنا على أن نبقى في مدرستنا وأن نسهر معا ليلة في كل شهر بالمنزل أو في احد المطاعم، فكان الاتفاق على أول لقاء بمتنزه ومطعم عائلي في طريق الثمامة، جاءت رباب لأخذي بسيارة أسرتها كنت أرتدي (بجامة) نومي.

بعد شرب الشاي مع والدتي أخذتها إلى غرفتي، جلست على طرف السرير؛ أخذت احد أثوابي من خزنة الملابس ودخلت الحمام حتى أبدل ملابسي كان الباب مواربا حتى لا ينقطع حديثنا، وأنا شبه عارية فتح الباب توقفت عن الحركة كانت رباب تحدق في جسدي، اقتربت اكتشفت بشرتها الناعمة وشفتيها الرقيقتين، كانت جسدا رطبا وجائعا. تنداح في الذوبان بينما يظهر الثلج نيرانه حولها؛ نبهنا جرس الهاتف كانت مريم ترشدني للقسم الذي تم استئجاره ورقمه حتى يسمح حراس البوابة لنا بالدخول، في السيارة لم ننبس بكلمة.

لم نلحظ الوقت ونحن نتجول في المتنزه نطارد بعضا بين الأجهزة والألعاب، وانشغلنا بالتعليق على من يصطدم بنا من رواد المكان وملاحقة بعض الشباب لرسم مغامرة قد تنتهي بمغادرتنا وعودتنا للمنزل. تذكرت غسان أنه أخذني ذات مساء إلى مكان شبيه بما أنا فيه تدفق مشاعر وحديث عن الحرية والحياة، كان لقاء عاديا كنت متوترة والدم يجري في عروقي متعثرة في حمى حلم يسبر العزلة يتباطأ في تقدمه عبر الفراغات وهو يسير باتجاه هدفه؛ لم نتحدث فيه عن شيء ذي أهمية.

وأنا في فراشي استعدت ساعات يومي، كل ما أعرفه عن رباب أنها زميلة عمل، لكن غسان المتخصص في الحاسب وتجارة الأجهزة الكهربائية في شركة والده، جال العالم لتوقيع العقود ومعه كنت أسافر بخيالي ومشاعري. وهو يحدثني عن المدن التي يزورها، وجسدي يصارع رغباته وصوته يرن في أرجاء غرفتي عارضا أمامي برامجه ومعرفته؛ أخذني إلى أسواق ومراكز تجارية لم أدخلها من قبل، وأهداني ملابس جديدة يفرض ذوقه الذي صقلته رحلاته واختلاطه بثقافات العالم علي، أنفاسه تلهب وجهي وتوقد فتيل زجاجة الرغبة في جسدي شفتاه جذوة من نار، أغمض عيوني لأستسلم لم يلتهمني ولكن أيها الخافق مهلا فقد مزق روحي اجتاحني فتطاولت على السور الذي يحجب الفضاء. ونمت مشاعري الصغيرة.

غفوت وأنفاس رباب تعطر المخدة. أتقلب كي أطير منسابة إلى سهول البنفسج، صحوت من النوم على صوت منبه الساعة ليوم مدرسي جديد؛ كانت رباب وحيدة في المقعد الخلفي.

قالت سعاد: وهي تراقب الطريق مريم سوف تتأخر للعاشرة.

في غرف وممرات المدرسة طاردت نظرات رباب الهاربة، ولما لمحنا مريم قادمة انفجرنا في ضحكة طويلة ومرتفعة، وفي العودة تبادلنا حديثنا المرتبك الماجن بهمس، الذي معه احتجت سعاد المنتصبة كما خيال المأتة في المقعد الأمامي.

قالت مريم: بصوت خافت كنت في إفطار عمل تأجل عشر سنوات.

جاء اتصال رباب في السابعة ليلا تخبرني أن مريم كانت مع ابن جيرانهم المبتعث للدراسة في أوربا وتأخرت عودته كثيرا.

أثار الاتصال لحظة هروب من المنزل ومن الجامعة رتبته مع غسان ليوم أناسي الطبيعة العذراء في العصر الحجري، كان التعري الكامل ونحن نتبادل الحديث أمام التلفزيون المغلق في انتظار الإفطار الذي طلبناه من مطعم يعرف رجاله الشقة، رن جرس الباب فغطى غسان جسده بالدثار وأنا هربت إلى غرفة النوم، انتظرت إغلاق الباب لمغادرة الفراش الذي رقدت عليه مغمضة العينين وإذا بأنامله تتحرك بهدوء ونعومة فوق جلدي مقتربة من مواطن الجنون، اخضرار واسع وعميق يفتقه ذهني وهو يتسلق الأشجار يبحث في الشقوق، فأغلق جفني حتى تكون هذه اللحظة صلاتي.

تعرق جسدي والتهبت أطرافي، دخلت الحمام فانهال الماء البارد مسكنا روعي ووجيب قلبي وأنا أتمدد في الفراش والساعة تشير للحادية عشر' ليلا، عاودت الاتصال برباب ردت أمها فارتبكت وجاء صوت رباب مبتهجا.

في لقائنا الشهري كنت أول الواصلين لمنزل رباب أخذتني لغرفتها عرفت أن مريم وسعاد قادمتان، طوقتها بذراعي التصق صدرها بصدري والتقت شفتانا في قبلة تقطعت معها أنفاسنا كانت المرآة تعكس صورتنا وقد اندغمنا في جسد واحد.

قالت رباب: إن زوجها المسافر منذ شهر عاد البارحة لكن لذتها تتجلى في جسد أنثى تشاركها طراوتها فترطب مسامها، البداية شكلته معلمتها في المرحلة المتوسطة؛ وطفح على السطح مع زميلة في كلية الآداب بجامعة الملك سعود،

وهما في الفصل الأول من العام الدراسي الثاني هاجرت مع والدها الأستاذ الجامعي إلى أمريكا بعد توقيفه عن التدريس والكتابة في الصحف بسبب مواقفه السياسية الحرة ووعيه بحقوق الإنسان، في وطن تملك الدولة مصادر الثروة ولا تفصح عن مقدار الدخل، وتعلن المصروفات تقديريا حتى يتم حجب الدعم عن الخدمات التي فشلت في مواكبة النمو السكاني، ولما نشر مقالاته في صحيفة لبنانية حقق معه وفصل من الجامعة بعد اتهامه بالعمالة واعتناق الشيوعية فافتقدتها.

قالت رباب: تقدم ابن عمي منذ ثلاث سنوات لم أقاوم وان لم أشعر به وهو يمزق جسدي فحبست مشاعري حتى تئد نبضاً لم يتفتح وألد ابننا الأول بل زاد انكساري الداخلي مع قدوم ابنتي.

وها أنا أستحضر معلمتها بصوتي وبضحكي ولهيب أنفاسي، جاء صوت الخادمة يخبرنا بوصول مريم، حدقنا في المرآة نتجاوز توتر الق الخلوة.

قالت سعاد: اليوم طلقت زوجي الذي لم يدخل بي.

قلت: نعم؟

قالت مريم: سعاد ثلاث مرات تزوجت وتطلق.

قالت سعاد: كل واحد فيهم يهرب قبل تذوق العسل.

قالت رباب: أكيد واحد يحبك عامل لك عمل.

قالت سعاد: ياليت بس يتقدم.

قلت: بصراحة من فض الخاتم؟

قالت سعاد: في قصر الأمير العبيد كثير والزوار لهم مطالبهم.

قالت مريم: يعني السور المطوق بالحراس يبيح كل شيء.

قالت سعاد: كانت لنا أسماء مفردة وألقاب تتفق مع تشكل البنية في القصر، اسمي العصلا.

قلت : وبعد العتق وإصدار صكوك الحرية.

قالت سعاد: لم نغادر القصر حتى توفى العم وتفرق الأبناء والبنات، كان نصيب أمي مرضعة كبرى البنات منزلا شرته العمة.

تناولنا العشاء وشعرت بتعاطف مع ولد وبنت رباب ضخ في داخلي هاجس الأمومة، وتجاوزنا الهدوء لنتحدث عن حكايات أخرى هي جزء من حياتنا فتخيلت غسان يجلس بجواري يهمس في إذني: كفي عن خوفك لم يحصل أي اتصال فأرتعش ويواصل حديثه الهامس: من شاهدك تدخلين الشقة.. ما حصل أمر عادي.. الحب جنس وفراش وعبره تتم الصفقات. ومن خلاله تحاك المؤامرات، توقف عن الهمس وسعاد ومريم تهمان بالمغادرة تعرضان علي توصيلي للمنزل.

في العام الرابع تم نقلي لمدرسة داخل مدينة الرياض، أخي الأصغر بعد تخرجه من المعهد الصحي توظف بوزارة الصحة فرع مكة المكرمة، ثم انتقل عمله إلى إدارة تعليم البنات بمدينة الرياض ومن خلاله تم نقل الباقيات سعاد مريم رباب وبقينا على تواصلنا.

قالت سعاد: عبر الهاتف إن أمها ماتت أوصلني أخي الأصغر لتقديم التعازي عرفت انه يدل الطريق، في العودة كاشفته وبعد جدال.

قال: بين وقت وأخر أزور أخا سعاد.

قلت وأنا اضحك: وسعاد؟

قال: نعم.. هي تجربتي الأولى.

قلت: وغيرها.

قال: لم تنجح

قلت: تعرف أنك شقيقي.

قال: نعم وتذكرك بخير.

في لقائنا الشهري بمنزلنا لم أناقش سعاد في الأمر، ومريم تكمل تفاصيل نتف من حياتها، تذكرت غسان في أخر لقاء لنا، جاء كل شيء مصادفة، كنت أنتظره في الشقة أجلس أمام التلفزيون، بعد مهاتفة المطعم لإحضار سندوتشات ومشروب فواكه مشكل مترقبة قدومه، فتح الباب ليطل وجه غريب ترافقه امرأة لم يفاجئه وجودي، تجاوزاني إلى غرفة النوم، تفجرت مشاعري لهبا وأنا أسمع همسهم فغادرت الشقة؛ لم يتجاوب المصعد لطلبي فهبطت درجات السلم.

في تلك اللحظة كانت فرقه من رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع رجلي شرطه تغادر المصعد. لتقف أمام باب الشقة الذي كان مندوب المطعم يطرقه، سرت على غير هدى في الشوارع والأسواق؛ ولما شعرت بالتعب أوقفت سيارة أجرة وعدت للمنزل، قاومت أنين الخافق وجوع جسدي. بجلد ذاتي ورتق ثقب أحدثته في ثوب التواصل الأسري؛ وقد وعت والدتي هواجس روحي وشتات فكري واستوعب والدي حالتي النفسية وانشغلت بدراستي فتخرجت من كلية التربية؛ والتحقت بالعمل وتوقف وجيب قلبي وتناسيت طقوس الرقاد في الفراش عارية.

قالت مريم: أخي المهندس طلب مني أخطبك له.

قلت: وهل يعرف عني شيئا يدعوه لذلك؟

قالت: من حديثي عنك اشتعلت الرغبة فيه.

قلت: كل شيء.

قالت: أخي مطلق ولم يرزقه الله بالذرية.

قلت: عقيم.

قالت: أبدا الفحوصات خلال زواجه الأول الذي استمر سنوات أربع تثبت العكس.

قلت: وهل يبقيني سنوات أربع ثم يطلقني.

قالت: الأمر في حكم الغيب.

ولما لم أفدها بشيء جاء اتصاله، تحدث عن تجربته التي انتهت ويشعر أنني الأقرب إليه من خلال حديث مريم، تواصل اتصاله وتم الاتفاق على أن يكون الزواج مختصرا وبدون حفل عام تردد ثم وافق، جاءت ليلتنا الأولى في غرفة فندق، واستمرت خلوتنا أيام عشرة نتجول في الشوارع ثم نعود لوكرنا، لم ينقطع عن حديثه ولم أمل من ترسله ولما ضمنا منزله لم أشعر بغربة وقد خلت الغرف من أصوات الآخرين.

في العام الثاني جاء ولدي سعد وقبل أن يكمل عامه الأول تعرض زوجي لحادث سير أثناء مهمة رسميه يتابع فيها إنشاء مبنى حكومي في مدينة المجمعة. كانت الإصابة قويه لم تمهله سوى أشهر، وأثناء مراسيم العزاء جاء صوت غسان مواسيا تمالكت نفسي وسلمت سماعة الهاتف لأخي الأكبر تقبل المواساة التي طالت وهو يرمقني بنظره، لا أدري ماذا قيل ولكن مع ركض الأيام شعرت أن أخي يخبئ شيئاً لم أسع لمعرفته.

* * * *

صائد المسافرين

رشحت لبرنامج تدريب من قبل إدارتي لمدة خمسة أيام، في الطائرة راجعت جدول المهام واستذكرت عنوان المركز الذي يتولى البرنامج والسكن، فلما توقفت الطائرة في مكانها تأخر فتح الباب مما أزعجني بعض الشيء، متذكرا أيام السجن عندما تم احتجازي، عاما كاملا قضيته في الظلام بسبب وجود رقم هاتفي في جوال أحد دعاة التكفير من الخوارج، وعند بوابة الخروج تلقفني رجل في منتصف العمر نحيل القامة أبلق، هامسا بحاجتي لسيارة توصلني للمكان المطلوب، ترددت في الرد لكنه أمسك بكتفي مبتسما وهو يقول: لن نختلف على الأجرة.

ناولته حقيبتي الصغيرة وسرت خلفه، لما أدار محرك السيارة قال وهو مبتسم: لو تم توقفنا عند نقطة التفتيش قل للشرطي انك ولد عمي.

ترك كفة ترتاح على فخذي بود، تجاوزنا نقطة التفتيش وسألني وهو يراقب الطريق زيارة عمل.

أجبت نعم لمدة أسبوع لتطوير الأداء في العمل، سألني وقد رفع كفه ملوحا بسبابته نحو المدينة التي لاحت منازلها لديك مكان محدد، تأخرت في الرد أتأمل ما حولي وقد تملكني الخوف باحثا عن الحافز المطمئن.

قال: غريب ممكن أساعدك السكن والمشاوير حسب ميزانيتك، السكن المريح والخدمة المناسبة التي معها تستوعب درس التعليم، نبش بكلمة غريب ذاكرتي فأنا نفس يوجعها الحنين.أحمل اسم خالي الذي رعى والدتي بعد انضمام والدي المبتعث للدراسة في لندن لجبهة سياسية معارضة فسحب جوازه، معه أضافني خالي في قائمة أولاده حتى لا أفقد حظي في الدراسة، أناملة تتحرك على فخذي وشرع شيء في داخلي يرتج.

قلت: في كامل يقظتي ما عندي مانع حسب المعقول.

قال: اتفقنا لكن أنت فنان واللا عليمي.

قلت: أضع إصبعي على جرحي وما يمنع أتعلم وأصير فنان.

اتصل بهاتفه النقال عرفت أنه يكلم امرأة، سأل عن مكانها وهل أحد في البيت، التفت نحوي فوجدت الروح التي تسبر أغوار القادم تسير أمامي.

قال:المشوار أجرته خمسين ريال وهذا خارج أجرة السكن والخدمة كم يوم الشغل؟

قلت: أيام خمسة.

رد اتفقنا السكن مئة ريال والخدمة خمسين كأنك في فندق.

وصلنا المكان ضغط زر الجرس ثم أدخل المفتاح في الباب وسبقني إلى الداخل، أدخلني غرفة أثاثها بسيط طلب مني الجلوس وهو يجلس على مبعدة.

قال: سوف نرتب لك غرفة معتبرة أنت في بيتك.

قال: سوف أترزق الله وأنت ارتاح وفي الصباح الساعة السابعة أوصلك للمركز .

ودخلت علينا امرأة بيضاء الوجه تحمل إبريق الشاي وبجواره سلة خوص تحوي أنواعا من البسكويت.

قال: مزنة نور العيون تقوم بالواجب وأكثر، مددت كفي مسلما شعرت بنداوتها وبياضها وقد غطى بدنها ثوب فضفاض أحمر توشيه ورود صفراء.

تناول كأس شاي وبعض البسكويت ونهض دخل علينا طفل في الثالثة وطفلة في الثامنة أحاطاني بعبثهم. غادرت المرأة الغرفة وبادلت الطفل والطفلة الحديث، اكتشف اللحظة انتظر تبدد ظلال زمن خسيس، التصق الطفل بي فأخرجت من جيبي ورقة عشرة ريالات ناولته اياها فتردد في أخذها، سحبته وقبلته على خده ودسستها في كفه، اقتربت الطفلة مرددة (وأنا) فأخرجت ورقة أخرى مدت كفها فسحبتها نحوي قبلت خدها فزمت شفتيها، عندها دخلت المرأة ضحكت وهي تراني محتضنا الطفلة.

قالت: الغرفة جاهزة.

كانت الغرفة في الدور الأول بجوارها حمام، فتحت الباب ودخلت علاقة الملابس خلف الباب جلست على طرف الفراش أجس ليونته، خرجت وتركت الباب مفتوحا، لتعود بالحقيبة كنت ممددا في الفراش بثوبي.

قالت: عندك غيار للنوم.

قلت: سوف استحم.

خرجت فخلعت ثوبي وبقيت بسروالي الداخلي القصير. فتحت الحقيبة وأخرجت بيجاما النوم والمنشفة. دخلت الحمام، كان الماء منعشا ولم أجد صابونه ادعك بها بدني فلم أهتم وإذا بالباب الموارب يطرق كانت هي ومعها صابونة وقارورة شامبو.

لما عدت للغرفة نشطا وشيء يدفعني للترقب، السجن لاح يسوقني صوب المجهول ينسل من تلقاء نفسه؛ فأفتح باب الغرفة سمعتها تحادث أخرى لم يطل حديث الاثنتين، خيم الصمت على المنزل والساعة تشير إلى العاشرة ليلا، عبر الحدس بطبيعته وظروفه جاءت كما أسطورة فشعشع العمر حتى الثمالة.

قالت: هل أنت بحاجه إلى أكل وشراب؟

كنت أحدق فيها مكتشفا تقاسيم وجهها.

قلت: ماذا تودين أن نفعل؟

سألتها بثقة ورقة، غير أني لم أدر ما إذا كان عليّ أن أصدق اللحظة، لم أفكر في احتساب الأمور، أستنشق عطرها وعرقها، جاءت حركتها مفعمة بالحنان وهي تخبرني أن العشاء جاهز، والجميع ينتظر.

عاودني هاجس الضياع الذي معه أحلم بأني في ميادين خربة لا أحد فيها وأتردى في هاوية لا قرار لها، في الصباح تنبهت من نوم عميق عليه وهو يمرر كفه على جسدي.

قال: نمت وارتحت؟

قلت: نعم.

قال: انهض حتى أوصلك للمركز.

تأخرت في المركز مكملا التسجيل وشراء نسخ من المحاضرات وجدول البرنامج وعرفت أن من بين اتفاقية المركز والإدارة السكن في أحد الفنادق بغرف مشتركة مع دارسين آخرين، شريكي في الغرفة لم يصل تذكرت الحبس الانفرادي والأصوات المزعجة حتى لا أنام.

أشتعل جرس هاتفي كان سائق العربة، يسأل عن حاجتي أخبرته أنني سوف أهاتفه فأنا في جولة يعدها المركز للتعرف على مشروع البرنامج، في العاشرة ليلا كنت اقرع الباب ولما دخلت.

قالت: إذا سوف تبقى معنا؟

قلت: نعم.

قالت: خذ مفتاح للباب لو صارت لك مشاوير.

بعد غروب شمس اليوم الثاني لم أجد أحدا في المنزل، طفا على السطح يوم خروجي من السجن كنت قلقا على أمي لما وصلت قريتنا لم أجدها في الدار فأسرعت لمنزل خالي لم يرحب بمقدمي ؛ ولم يطلب مني الدخول، لكنه قال بصوت غليظ أمك ماتت وأوراقها عند جاركم إمام المسجد، اتصلت على هاتف السائق.

قال وهو يضحك: الجماعة في مشوار وسوف يتأخرون لكن تبحث عن ونسك أبشر، على فكرة فيه أجنبي ريح طيبة وأغلق الهاتف

دخلت الحمام وأخذت ادعك بدني الذي أنعشه الماء البارد وأنا أنشف جسدي كان جرس الباب يرن، لبست سروال البيجاما على عري وفتحت الباب كانت شقراء كاشفه الوجه متلفعة بعباءة خفيفة.

قالت: ألا يوجد أحد.

قلت: نعم.

قالت: إذا نتعارف.

وأنا أغلق الباب تخلصت من العباءة وغطاء الرأس فانسدل شعرها، مهدت لدخولي عالمها ودفعي للغوص في بحرها، سمعنا حركة في المنزل بهدوء فتح باب الغرفة كانت مزنة ألقت علينا السلام وأشعرتنا أن العشاء جاهز، ابتسمت ابتسامة طفيفة بعثت بعض الحسد الذي تحس به، وطلبت أجرتها قدمت لها ورقة مائتي ريال دفنتها في صدرها.

قالت: أعط الغجرية خمسين ريال كروتها.

لبست بيجامتي وأنا أخاطب الفراغ الذي تلبسني؛ لا يمكن للواحد أن يغير نفسه ويتجاوز التوتر الطاغي الذي يبعث القسوة في الملامح.

في اليوم الثالث جاء البرنامج مختصرا بسبب اختبار التقييم، فخرجت في العاشرة صباحا تناولت ساندويتش وكوب قهوة في مطعم المركز، تدفق معين الذاكرة تخرجت من المرحلة المتوسطة ولم أسع للمرحلة الثانوية فطال مكوثي بالمنزل، عندها توسط إمام المسجد بولده الموظف حتى يبحث لي عن عمل فكان في المدينة، فأخذت اجتاز الطريق بين قريتنا والطائف مع رفاق في العمل، وجماعة من الدعاة يقيمون حلقات ذكر وتناصح في المساجد وبين الجبال وفي الأودية، ومعها كان السجن.أخذت سيارة آجرة إلى المنزل لم يكن هناك أحد دخلت غرفتي ونمت مع أذان الظهر كانت مزنة السهل الحسنة الخلق تهزني بوجل.

قالت: متى وصلت؟

قلت: من العاشرة.

قالت: كنت أتسوق الولد معي والبنت في المدرسة.

أجلستها على طرف الفراش وأخرجت من تحت المخدة خمسمائة ريال دسستها في كفها

قلت: خمسون أمانة من البارح.

لم أكن سعيدا في هذه اللحظة؛ لم أكن سعيدا في هذه اللحظة، ولم يكن في مقدور مزنة إلا أن ترى في رغم هشاشتي رجلا مصرا على انتصار ذكورته.. ! لماذا أفسدت كل شيء قاومت انفجار اليأس.

قالت: الغدا جاهز ملفي والبنت في الطريق.

بعد المغرب ونحن جلوس أمام التلفزيون نشاهد مباراة في كرة القدم رن جرس الباب فأسرعت الطفلة للباب ولحقتها مزنة التي عادت قائلة جيراننا سوف يذهبون لمنتزه العاب والبنت والولد (يبون) مرافقتهم.

قلت: وأنت؟

قالت: أجلس إذا لم يكن عندك مشوار.

قلت: سوف أكتب بعض التقارير المطلوبة.

قالت: إذا اعد القهوة حتى تستوعب.

سائق التاكسي جاء بعد صلاة العشاء فبادلني أطراف الحديث ثم اختفى للراحة، ولما جاء الجميع بدلت مزنة ملابس الطفل والطفلة وأمرتهم بالنوم، قبلني الطفل على خدي ووقفت الطفلة أمامي بثوب نومها القصير تأملتها وسحبتها نحوي قبلت خديها ثم قرصت إذنها، اختفى الجميع بقيت مع أوراقي، وشاشة التلفزيون ولما انتهيت في الواحدة بعد منتصف الليل جمعت أوراقي واتجهت لغرفتي.

قبل شروق شمس اليوم الخامس اليوم الأخير الذي يبدأ برنامجه في العاشرة نبهتني مزنة من النوم .

قلت: بدأت أشعر أنني في داري.

رفت جفونها ومطت شفتيها أرغمت نفسها على الابتسام، إنها تسيطر على مشاعرها بشكل أفضل ومع النظرة المنسدلة والمتقدة تشنجت أصابع كفي على كتفها، كل شيء فيها يرتعش، أتدفق في ألرائحة الطيبة، المكان الزمان ولعثمات أشياء لا تنسى، استقرت في أعماقي تطرد أشباح الظلام وسجن الوحدة والوقت الذي يلتهمه الأرق والفقد، أنفاسها تتعالى حتى هدأ حراكها وسكن نبضها.

قالت: عليك الاستعداد للخروج.

كانت الكلمات تخرج بصعوبة من بين شفتيها، بدلت ملابسي تألق رنين الهاتف كان سائق التاكسي يخبرني انه ينتظرني بسيارته. خرجت لم يكن موجودا حدقت في ساعتي قلقا وإذا هو يطل من طرف الشارع.

ونحن في طريقنا للمطار أخبرني انه تبقى علي دفع أجرته على تأمين السكن مع أجرته للمشوار، كفه تربض على فخذي لفت نظري عروقها البارزة وبياض ثلاثة أصابع وجزء من ظهر الكف بسبب البهاق، شعرت بانكساره وهو يتناول المبلغ ويدسه في جيب ثوبه لمحت أن كفه ترتعش وأنا افتح الباب مغادرا السيارة أخرجت ورقه مائتي ريال دسستها في كفه ابتسم. وأنا آخذ بطاقة صعود الطائرة لمحته مازال واقفا عبر زجاج المطار لوحت بكفي لا أدري هل شاهدني.

رجل الشرطة يدقق في هويتي وبطاقة سفري والآخر الجالس عند جهاز الفحص يحدق في مبتسما، كان يحمل تقاسيم وجه سائق التاكسي لكنه هنا ممتلئ مائل للسمرة بينما البياض يوشي ثلاثة أصابع في كفة اليمنى وجزء من الظهر.

نداء الصعود للطائرة يتوالى وأنا أندس بين الركاب في صالة المغادرين ولأني على الدوام اختار التأويل الأبشع جاء خيال الصالة؛ باحة السجن لم يسمح لنا بالتجول والحركة.

* * * *

فرشاة اله الرعد

عندما حملت شهادة التخرج من الجامعة مشحونة كما عنقاء ملتهبة بجناح يلامس الماء وجناح يبلغ السماء بقدر كبير من الفعل الذي في إمكاني التحكم فيه، فقد ابتدعت طريقة تصنع الكائنات الحية في داخلي، أنفسها بطريقة تسمح بظهور العيوب حتى يتم إصلاحها وفق قانون خاص للمقاومة، كانت هدية الأسرة زوجا لم يفكر في تخصصي أدب انجليزي، ولم يمنع اشتغالي بتنمية هوايتي كفنانة تشكيلية وأنا أرصد جملة استخرجها من الذاكرة عندما أتوقف من التعب (آه أيها الرجال البائسون الذين تحطمون نوعكم بالذات من خلال تلك المسرات المراد منها إعادة الإنتاج، فكيف يحدث أن هذا الجمال المهلك لا يجمد شهوتكم المتوحشة؟) فأستعيد نشاطي لمواصلة سحق روحي في الألوان وفرشاة تعانق بياض اللوحات.

إنما لم يشغل نفسه بتحقيق رغبتي في العمل في بيئة تتسم بالمنافسة الشديدة، غير مبالية بالنزيف في الأدمغة التي تعيق دخولها المعترك متطلبات معقدة تفرضها رعاية وهمية تراه خلل في طموح المرأة. فكنت أقدم خلاصة معرفتي بين وقت وآخر في تقديم درس لغة انجليزية وأحيانا تربية فنية في مدرسة أهلية تعمل بها شقيقة زوجي.

ذات مساء جاء زوجي متهللا فقد عاد من بعثة للدراسة صديق طفولته، فكان حريا عمل حفل عشاء بهذه المناسبة، جاء الضيف مع زوجته وابنتيه، الكبرى في العاشرة والصغرى في الرابعة؛ أثر الغربة في حديثهم وملبسهم، الأم برغم تحفظها شغلتها لوحة رسمتها تأخذ حيزا بارزاً من غرفة الجلوس.

بعد أيام أخبرني زوجي برغبة صديقه في مساعدة طفلتيه بالحضور معهم في دراستهم حتى أساعدهن على اعتياد الفضاء المدرسي، كانت ابنة العاشرة تقاوم ما حولها وفق تحرك حجارة رقعة الشطرنج، وأجدها بمهارة اللاعب تعرف وجهة كل حجر، تقترب أكثر مني لتشاركني خصوصياتي، وذات مساء وأنا

أساعدها في حل واجباتها المدرسية اقترحت أن تكون موديلا أرسمه في لوحاتي القادمة؛ فاتحت أمها في ذلك، لم تعترض على الفكرة.

لما اكتملت اللوحة زرعت الأم على خدي قبلة طويلة وهي تحمل اللوحة لتعلقها في غرفة نوم الابنة، ولتطلب مني بصوت هادئ وطريقة خافتة الإيقاع لشخص أمضى وقتا طويلا يتحدث إلى مطلبه بصرف النظر عن الدافع لرسمها؛ لم أتردد في إعداد لوحة جديدة وجاءت لحظة البدء لمناقشة الشكل والحالة التي نتشكل فيها لفضاء رحب من التواصل.

هنا طفا على السطح أحداث تجاوزتها في رحلتي الدراسية، وعنونتها في لوحات بفرشاة اله الرعد. تلون فضاءها صديقة مفترضين أننا نهمهم ونحن نضبط نغمة حياتنا على ترددات نبوءة معرفة الروح الصحيحة. جاء اقترابها عنيفا في المرحلة الثانوية بعد انتقال المعلمة التي تعشقها لمدينة أخرى فكنت البديل الذي مارست معه لعبها؛بذاءة تلذذي يثير شغبها ويدفعها إلى إيثاري بعنايتها وحراستي من الأخريات فخلقت ونحن في الجامعة نوعا من التواصل الرومانسي بأخيها الذي يعيدني للمنزل من الجامعة عند تأخر والدي، لم يتجاوز في التقائنا في مقهى ومطعم في لحظات مختلسة الحديث عن أحلامنا وهمومنا الجامعية.

ذات مساء وزوجي مسافر في مهمة عمل جاءت، لتحول الموهبة الخاصة لدي إلى انجاز أدركت أنها تعرف كل شيء عني وعن تأخر الحمل واستشعار مخاض الولادة وصمت زوجي، فأنا في مخيلتها الأرض القفر، كانت تحمل كتاب شعر يحوي رسوماً مختلفة تتواكب مع مضمون كل نص، وقد ثنت طرف صفحة تحمل صورة امرأة تفاصيل جسدها المكتنز تتجاوز إطارها.

تستعين بمساعد لها لتسهيل مرورها بيسر ودون مساءلة إلى مرحلة دقيقة لشخص تراه مطلع، والعارف بما يتعامل في أعماق محاوره؛ ونحن ندخل المرسم وقفت أمام اللوحة البيضاء المعدة للتشكيل وتناثر الألوان، ثم التفتت نحوي كانت نظرتها تائهة في البعيد وكأنها في مكان تنتظر الصانع الأزلي المقيم في الغابة الزرقاء.

قالت بنبرة مطيعة: أين أجلس؟

قلت: (وأنا أسحب معطف الرسم حتى لا ألطخ ملابسي بالألوان) هنا.

اقتربت مني تساعدني على لبس المعطف، أنفاسها تلفحني، توهمت أن شفتيها تدغدغ مؤخرة رقبتي فازددت بهجة، عدت ضمن صبية يلعبون في غابة غناء متناسين القوانين وقد جمعت التين ألشوكي أشدو بأغنية أحب ترديدها. سمعتها ذات يوم فحجبت كل الأصوات؛ توقفت عن الحركة اكتشف شيئا أعمق في عقلي بصوتي فابتعدت وهي تتشكل.

قالت: ابنتي تحبك.

قلت: إنها رقيقة وتدفع من يتعرف عليها إلى عشقها.

قالت: كانت الأثيرة في مدرستها هناك.

أكملت ربط حزام المعطف وشرحت لها كيفية الجلوس، وأنا أنثر شعرها تجلت صورة صديقتي التي أحتفظ بعديد من صورها الفوتوغرافية واللوحات المختلفة التي كانت تمنحنا خصوصيتنا التي انقطعت وأنا في المستوى الثالث من الجامعة بسفرها المفاجئ مع والدتها المريضة للخارج فانقطعت أخبارها.

كانت مغمضة العينين تتنفس بهدوء وكفها اليمنى تتصلب على طرف المقعد بينما الكف الأخرى الرابضة على فراغ المقعد الذي كنت أتمدد عليه عند التعب تتحرك ذهابا وإيابا تنتظر الحركة الأخرى، جلست بجوارها تعانقت كفينا على المقعد لاصق كتفي كتفها، التفتت نحوي طوقتني بذراعيها كل شيء فيها يبكي.

تأخر اكتمال الصورة وتناثرنا في فضاء المدينة كل ما نفعله يتجدد في زيادة مساحة انشغال زوجي وزوجها، والى استراحة صغيرة في شمال الرياض حملتنا سيارة أجرة خاصة (لوموزين) وأنا أنصت لغيابنا بحثا عن ما ينبغي الآن أن يولد في ذاتي التي بعثت. سبحنا ومن الإرهاق نمنا وإذا بصوته يدعونا للعشاء.

قالت: صديق من رض الغربة.

قلت: كيف؟

قالت: انه من هنا رجل أعمال ومغني اسمه الحركي يثير الانتباه.

ونحن نجلس حول طاولة الطعام عرفت أنه يملك المكان وأنه تعرف عليها في حفل المعهد الذي درس اللغة الانجليزية فيه أثناء دراستها في بداية اغترابها وتكرر سفره كاسبا التأهيل في برامج ودورات تنمي هواياته ومشاريعه التجارية .

يتساقط مطرا وتتجاوب ضربات قلبي مع حاجات لا تتغير في أن أقضي من هذه اللحظة حاجاتي وفق الأنا متجاوزة النظر عمن ستلحق به السعادة ومن سوف يرث البؤس، فالسعادة لذة والبؤس ألم، واللحظة لم تترك سبيلا للتصرف، فعلي اعتبار اللحظة قيمة ذاتي المنسابة فأنا الآن ريح مشاعر عارية كنت أنحني بحريق مضاعف لميلاد جديد في كون باهر.

وفي العشاء الثالث شاركني في رسم لوحة جاءت الفكرة فيها عبر ريشتي كما أتخيل اللحظة وبريشته كما يتخيلها، معها تحولت الاستراحة إلى مرسم بديل. ولما اكتملت اللوحة جاء احتفالنا متجاوزا المتخيل، لم يكن رجلا ممزقا بين امرأتين، بل نحن الثلاثة نشكل حالة صعبة غير أنها تأتينا بالسعادة؛ تحدثنا أكثر مما ينبغي لم أفكر في احتساب الأمور؛ رأيتها كيف استسلمت بوهن كانت مفعمة بالحنان ودافئة.

ولما طال سفره في رحلة عمل شعرت بقلقها في انعدام القدرة على التعبير مغيبة الوعي من فرط الاستغلال الذي لم تواجهه. والاستنزاف القهري بسبب خلل هيكل القوة في داخلها مما يعني انجرافها للقاع، فأخذتها في جولة بأحد الأسواق ثم جلسنا بالمقهى ليقتحم طاولتنا من أثار عجبنا، ابتسم من غير أن يلاحظ انزعاجنا.

قال: كنت أراقب تجوالكم.

قالت: لم؟

قال: لفت نظري تعانق كفيكما.

قلت: وما شأنك؟

قال: أنتما عاشقتان وأنا عشقتكما.

جاء صمتنا متوافقا مع استرساله في الحديث واكتشاف مخزون كل واحد، ليس فيه ماهو كئيب أوخفي يفرض الاقتراب منه بحذر. دفع حساب القهوة وبسكويت البيت فور غادرنا السوق عربته الفارهة لم تغير من وجهتنا وحديثنا فلم يعد هناك ما يتوجب التفكير، طالت الطريق بسبب إشارات السير وازدحام الطريق وفي جنوب المدينة وعبر شوارع ضيقة شديدة الظلام فتح مدخل سور تغير لونه بفعل الزمن لندخل (استديو) خاص غرفة ومرسم يتوسطه حامل يحمل لوحة لم تكتمل ولوحات متناثرة على الجدران، ومكومة على الأرض في تشكل بديع لنبع يضم كل الأحلام والأشكال التي تنتظم الحياة التي أعيشها متجاوزة النسيان في تقاطعات طريق مفتوحة وواضحة سرت فيها لاشعوريا ذات مرة في الفجر تسوقني دمدمة ولعثمات لأجد كل شيء، أحبني المكان والزمان فتعانق النور في داخلي زارعا أشياء لا تنسى.

جلست وجلست حول طاولة تداخل لونها مع بقع أصباغ تراكمت بعفوية، وجاء حاملا زجاجة مشروب لم تفتح وثلاثة كالفراش.على المقعد المقابل وسكب قطرات من المشروب تجرعت كأسي كانت المرة الأولى التي أتذوق فيها الخمر؛ وتجرعت كأسها، أشعل التلفزيون كانت قناة موسيقى غربية، قامت ترقص شاركها الرقص وشاركتهم بالتصفيق.

كل شيء فينا يتداخل ولما تنبهنا للوقت اتصل بهاتفه فجاء من أخذني وصديقتي لما دخلت المنزل وجدت زوجي في الفراش. تمددت بجواره التصق جسدي المبتل بجسده عاد تصببي المتبلور عبر متاهات أزلية تهيم بها روحي منذ جاء الكون فقد حزرت الحقيقة.

عرفت أن صديقتي وهي تهبط من السيارة تعثرت فساعدها السائق الأسود على فتح الباب وفي المدخل المعتم وهو يتفحص مفصل قدمها المتألمة ضاجعها مراهنا على السكون الذي اكتشف أهميته؛ وتركها في مكانها لتجد الخادمة التي أنسلت من غرفتها في سطح المنزل لأخذ ماء بارد من ثلاجة المطبخ تقف فوق رأسها فساعدتها على الصعود إلى غرفتها. شعرت ببعض الاستياء أهو الامتثال

القسري أو الخضوع الذي يجتر المرء عبره هزائمه الخاصة وفق التصور الساذج والمضلل. غير أنه كان طفيفا إلى حد انه فاجأني هذا الإحساس البليد.

اكتملت الصورة التي اعتنيت بألوانها ولفتت فنياتي نظر صديق زوجي الذي نقل إعجابه بموهبتي زوجي، فقد امتزج عملي بالمعرفة ووصلت نفسي باله ممزوج بالمطر معه ذلك الرضا الضروري من أجل أن تشكل هذه التجارب الأكثر اهتماما بالاتجاه الوصفي شعورا مستقرا في زمن متحرك، فجمعت حصادي بفرح الأماني التي معها تجاوزت جوعي.

* * * *

فسيفساء

توافقا عند الباب في الدخول.

واختلف الطريق في ممرات معرض الكتاب.

وتوافقا مرة ثانية عند الباب في الخروج.

اقتربت وأخذت الكتاب الوحيد الذي أقتنى.

وقفت.

وتوقف.

أخرجت من كيس ورقي نسخة شرتها من الكتاب ذاته.

وفي فضاء الشارع المضاء تشكلا جسدا واحداً قيدته في مكانه رغبة اثنين كل واحد له وجهته.

* * * *

أسكت يا الخبل

سنحت فرصة اللقاء، الذي معه أعلن مطالبي التي اختزلتها بعد مشاورة رفيقة الدرب في مطلبين، منحة أرض لبناء منزل لسكن العائلة، وأمر علاج لابني المعاق يخفف وطأة المصاريف.

وأنا في طابور السلام، شاورت بصوت مسموع الذي أمامي، أيهم أهم العلاج أم السكن، لكزني الذي خلفي وهو يقول: أسكت يا الخبل سلم وامش.

* * * *

المكيدة

باختصار هذا ما حدث؛ كنت كما هي عادتي في العاشرة ليلا في مقهى خارج العمران أمج دخان الشيشة وأراجع قصة جديدة متعسرة ولادتها؛ وإذا بها قبل أن تتجاوز مجلسي تلتفت نحوي قائلة: بشع واختفت في الظلام! ..

استفزني قولها ولكن عدت أصحح مواقف شخصيات القصة ونادل المقهى يعيد إشعال رأس الشيشة؛ لتعود قائلة: كم أنت بشع..؟

لحقها نظري حتى جلست مع ثلة، على مبعدة ضجيجهم أطفال نساء رجال يعكر المكان، وإذ بثلاثة أشباح يتجهون نحوي ويشبعوني لكما ولطما أنقذني النادل وبعض الرواد. حاولت تجاوز قلقي والمجموعة بهرجها ودمدمتها تغادر المكان، تنبهت من النوم على جرس الهاتف كانت هي أخذت تضحك مطالبه بزيادة مساحتها في القصة، تذكرت أن أوراقي نسيتها في المقهى.

* * * *

الباب

تلاشت كقطعة ثلج تعرضت للشمس؛ شعرت بالخوف من أنفاسها المتلاحقة أغمضت عينيها وبدأت تعود للحياة.

قلت بهلع: حنان.. ماذا حدث؟

قالت بصوت خافت: لا أدري..!

أخذت تفرك أصابع كفيها وتشبثت بالعباءة تغطي شيء في داخلها تعرى، غادرت العربة لم نلاحظ أن الباب الأزرق المغلق بسلسة وأقفال صدئة للمنزل المهجور والذي اعتدنا الوقوف عنده حتى تنزل في الشارع المتعامد مع الشارع الذي ينتصب في وسطه منزل أسرتها موارب.

اختفت في عطفة الممر الفاصل، انفرج الباب بعض الشيء كانت تبتسم فتعثر انطلاقي.

* * * *

الدوام انتهى

أخذ مكانه على الكرسي الذي قدمه مرافقه العجوز، تلفت حوله وهو يتحسس الحقيبة الجلدية التي يحتضن، نهض متأففا همس في إذن رجل الشرطة الذي ينظم دخول المراجعين غرفة الموظف فشرع الباب.

صرخ الموظف: لا يدخل أحد. وأحد المراجعين يغادر الغرفة.

انتصبت الحقيبة الجلدية فوق المكتب، رمق عقارب الساعة المنصوبة على الجدار، نهض رافقه الموظف حتى الباب؛ وغادر المكتب أمام عيون رجل الأمن وتوجس باقي المراجعين.

والساعة تشير إلى الثانية والنصف صرخ رجل الأمن في المراجعين (الدوام انتهى).

أخذ يتابعهم وهم يغادرون أماكنهم، دخل المكتب أغلق الباب بالمفتاح مد يده فاتحا الحقيبة، دوى انفجار هائل هز المبنى انفتح على إثره باب المكتب؛ قصاصات أوراق تتلاعب في الفضاء وعينان انفلتتا من محجريهما تصطدمان بالجدران.

* * * *

تربص

طلبت مني شقيقتي مساعدة زميلتها في العمل بتسجيل ابنتها في المدرسة الابتدائية، وكان علي أن أوصل الاثنتين والطفلة للمدرسة لأخذ أوراق الكشف الطبي؛ وفي اليوم الثاني للمراجعة اعتذرت شقيقتي عن مرافقتنا.

الطفلة بثوبها القصير تجلس بجواري في المقعد الأمامي للسيارة وأمها في المقعد الثاني خلفي مباشرة، لما ترجلتا أوقفت العربة بعيدا عن بوابة مبنى المركز الطبي في ظل شجرة وارفة وتحجب جزء منها حاوية قمامة كبيرة.

فتح الباب الجانبي للسيارة امرأة متحجبة أخذت تتفحصني ثم جلست بجواري، سحبت كفي وتخللت أصابعها أصابعي، رفعت الغطاء عن وجهها ودست أحد أصابعي في فمها تمصه توقف تفكيري؛ لا أدري كيف تجمدت أطرافي ولم أقاوم أو استجب لفعلها.

زميلة شقيقتي التي أنهت أوراق فحص ابنتها كانت تقف تراقب ما يجري تنبهت المرأة فانسلت خارجه لتختفي في بوابة المدرسة المحاذي للمبنى الصحي.

* * * *

خروف العيد

أوقف زوجي العربة في منحنى بجوار سوق بيع الأغنام القابع بين تلاع الردف ونزل ليشتري خروف العيد، أخذت في تأمل الفضاء واختلس النظر لمراقبة الأغنام في زرائبها المتهرئة.

لمحت رجلا بين العربات التي أمامي رفع طرف ثوبه وأخذ يتبول، شعرت برغبة تقليده فترجلت من العربة، تلفت حولي ثم جلست بجوار العجلات الخلفية يسترني الباب الأمامي المشرع.

فجأة إذ بفتى في الثانية عشرة من عمره مكشوف الرأس يقف أمامي، لملمت ملابسي وأنا أضحك دخلت العربة، وتركت الباب مفتوحا جثا عارضا أشياء صغيرة يبيعها في كيس نايلون أسود، كان جميل الطلعة، شعره الأسود الناعم تنفرد خصلة منه على جبينه، في حديثه عجمة واضحة.

جذبته من كفه التي مدها لتشجيعي على الشراء، زرعت قبلة طويلة على شفتيه الطريتين؛ استكان في حضني لحظات دسست فيها ورقة الريالات العشرين

التي أخرجتها لشراء المناسب من بضاعته في جيب ثوبه؛ ثم انفصل جامعا أشياءه ليختفي بين العربات.

* * * *

المتاهة

تذكر العينان الكابيتان والشفتان الدانيتان من شفتيه، صادف أخيرا شيئا حقيقيا إنها الثورة، همهمت: أن الثمن سيكون باهظا؛ وبدأنا نبصر النهاية التي نصعد نحوها.

* * * *

الحلم

تنفس بصعوبة محموما وكان الفضاء باردا، وهنا جاءت تذكره بحبه العذري تطرق الحدود الشائكة، وعاد بذكرياته منكبا على حزنه العفن.

* * * *

مناجاة

هي صورة في غاية الحسن تناجيه في الغيب، تتعدى إلى الحس المعدوم باحثة عن لذة خاطفة؛ لا تعرف إلا به مؤكدة كلاهما واحد.

* * * *

الأخت الثالثة

لما جلست قالت: ماذا قدمت حتى استأثرت بعشقك!

قلت : ماذا لم تقدمه مضحية حتى نكون الواحد.

ولم تغادر حتى بذلت كل شيء، وارتسمت على وجهها الموشى بشقرة لاهبة ابتسامة نصر؛

وأنا أجمع أوراقي وملابسي عائدا عثرت على حزمة نقود تجاوز إجماله تخميني وبطاقة تمني.

شعرت بالهزيمة وأني كنت في سوق النخاسة.

* * * *

كم هي الكرة الأرضية صغيرة

وأنا أفقد كل شيء جاء سفري بدون تخطيط انسياقا مع الحركة التشاؤمية التي غمرتني ذات لحظة، ففي أعماقي (بندول متّأرجح مابين البنى الاجتماعية المتشيئة والمغتربة) برغم من نضج الوعي الذي معه: أقوم بخلق آلأداة اللازمة للتغير وفق قدرات وطاقات تبني الفرص من أجل تفعيل جزء مقاوم في داخلي؛ مرافقا لأخ زوجتي السابقة، في زيارة لشقيق زوجتي ووالدته التي تراجع مستشفى في لندن.

لم أهتم بتوديع ابني مازن ذي السنوات الأربع، فقد كنت في مهمة عمل لمدة ثلاثة أسابيع، دورة في برنامج تدريبي في إحدى الجامعات البريطانية بالتنسيق مع معهد للغات وتطوير البرامج رشحني له مدير الإدارة التي أعمل بها رئيسا لقسم مالي.

كانت الرحلة والحجوزات تسير سلسة مما أغراني من خلال مكتب السفريات حجز مقعد للسفر إلى القاهرة في طريق العودة للوطن، بعد أيام ثلاثة من انتهاء البرنامج، كنت في القاهرة أبحث مع سائق سيارة أجرة خطفني من المطار عن سكن تتوفر فيه الخدمات السياحية وقد نسيت اسم فندق تردد كثيرا في أحاديث المقهى بين الأصدقاء.

أمام مغريات السائق وتحقيقا لجزء من مطالبي التي كشفها تبادلنا للحديث أثناء الطريق، وإنها زيارتي الأولى؛ كسب ثقتي كعلاج مثلي وفق توازن بين القدرة على التدمير الذاتي والصمود المذهل على إنجاب خاصية الرفض، كانت الشقة التي أدخلها معدة لزائر مترف بغرفتيها وصالتها ومطبخها، وعبر موقف أحفظ عينيك وكل الجميع لي: تدخل المشرفة على بعض شقق العمارة للترحيب وعرض خدماتها.

في اليوم الثاني أعدت الحياة لهاتفي الجوال ووجدت عدداً من الرسائل من الأصدقاء وزملاء العمل، لم أهتم بها فأنا لم أفق من لحظة غياب ذهني خلقته المشرفة على الشقة فقد شعرت أن ثمة شيئ ما ليس على ما يرام في صمتي

وتصرفت من هذا المنطلق، هنا وجدتني سائح لدن تجرب فيه صنوف الضياع الذي يبحث عنه.

كانت نبيلة كريمة في معرفة عوالم القاهرة وليلها السري الذي تشكل مع زجاجة مشروب معتقة من خمارة تنتصب في طرف الشارع بضوئها الخافت المائل للحمرة وروادها المحدودين وتقدير امرأة على أنها غير ذكية، في حين أنها تتميز بالذكاء في ضوء حاجات مجتمعها وخصائصه، وأخرى طرقت الباب تخزن لفائف الحشيش في صدرها الذي لم تهتم بعريه وهي ترقص.

جاء اتصال عارف النائب الإداري للمدير العام يخبرني أن أحد الزملاء في القاهرة لزيارة عائلية تعرض لوعكة صحية وهو بحاجة إلى مساعدة ليقوم المستشفى المرقد فيه بإكمال الفحوصات، ولما ورد اسم الزميل لم أجده في دائرة المعروفين.

وأنا أركض كمشروع تحرر من القيود بحثا عن المعرفة فتحه لي الوجود الباطن بحثا عن الجوهر متجاوزا دهشتي وتفاصيلها المتخيلة، في ممرات المستشفى باحثا عن موظف العلاقات العامة، جاء صوت إحدى العاملات لنجدتي فأخذتني إلى غرفة المريض، كل شيء فيه يوحي بأنه تجاوز لحظة الأمان في إرهاق جسده.

رحب بي عندما قدمت نفسي له وعرفت أنه وصل القاهرة منذ شهر لزيارة ابنته وقضاء إجازته الرسمية مع زوجته وطفليه وأخته وزوجها، لتدخل فتاة في الرابعة عشرة من العمر ترتدي سروال جنز وقميص ولادي مزركش بشعر قصير وصدر ناهد .

أشار نحوها وقال: ابنتي ثريا.

قلت: أهلا.

قالت: (بلكنة مصرية) حياك الله.

قال: ثريا مع أمها زوجتي السابقة.

قلت: مصرية؟

قال: نعم إعلامية معروفة تعمل في التلفزيون مذيعة أخبار.

وفتح باب الغرفة ليدخل رجل وامرأتان.

قال: يوسف زوج أختي وهذه أختي سارة وهذه زوجتي أعرفكم بضيفي زميل في العمل.

قلت: فاضل عرب.

تبادلنا الحديث وزودتهم بعنواني ورقم هاتفي وقررت الخروج معه، طلب مني إيصال ابنته لسكن أمها.

في سيارة الأجرة جلست بقربي في المقعد الخلفي، ران الصمت أولا ثم انبثق عن حياتها وعلاقتها بوالدها وعرفت أن الجميع سوف يغادرون بسبب انتهاء أيام الإجازة ومرور أسبوع على انتهاء مدة استئجار الشقة، لم تتوفر فيه السيولة المالية لتسديد أجرة المستشفى.

كانت ثريا تتحدث وكفاها تقبعان بين فخذيها (كل ما كان للعبد كسبا فالحق تعالى قائم به لا العبد، ولكن فيه ظلمة المكسب فأفهم) رمقتني وأنا أختلس النظر فقامت بمد كفها اليسرى وربتت على فخذي، قمت بوضع كفي اليمنى على كفها فالشوق يسكن باللقاء والرؤية والاشتياق لا يزول باللقاء.

قالت: أين تقيم؟

قلت: في شارع القناة.

قالت للسائق: اتجه إلى القناة.

قالت: رقم العمارة كام؟

قلت: لا أذكر.

قالت: ولونها؟

وإذا بنا نحاذي العمارة التي عرفتها من خلال الحديقة المقابلة لها، ترجلنا ودخلنا لنجد المشرفة تقوم بأعمال النظافة، رمقتنا بقلق وتوتر، تبسمت ثريا واقتربت منها لتساعدها في نقل بقايا سهرة، كل ما أتذكره فيها أول كأس وخيال راقصة لم تجد من يصفق لها ودخاناً يتعالى معه كل شيء اختفى.

كانت ثريا تدس قارورة المشروب بما تبقى منها في الثلاجة، وصفير غلاية الماء يرتفع لتقوم نبيلة بصنع كوبين من الشاي قدمتها لنا مع بسكويت وفستق ومكسرات مملحة.

رن الهاتف الجوال كان عارف يستطلع الأخبار، شرحت كل شيء وأنا أدقق النظر في تقاسيم وجه ثريا وذلك الحريق الجاف في العينيين؛ ونبيلة صاحبة الابتسامة المدهشة تلوح بيدها مغادرة، عرفت أن علي مساعدته في حل مشاكل الزميل المالية والصحية وتأكيد حجز عودته مع أسرته وتسديد فروق الحجز بسبب التأخر في السفر.

قالت: هاه ممكن.

قلت: نعم.

قالت: (وفي نظرها ومضات تحد) تحل مشاكل والدي؟

قلت: نعم.

هنا وبشكل مفاجئ قفزت من مكانها لتقبع في حضني تزرع قبلاتها على خدي وجبيني، لجمتني المفاجأة وتزايد نبض قلبي وتصبب عرقي، ولما استكان رأسها على صدري؛ أخذت أتأمل اللحظة مررت أصابعي على ظهرها لينبعث من شفتيها تأوه أكثره بكاء: ثم غرزتها في شعر رأسها.

قلت: هيا أوصلك للمنزل.

قامت بتكاسل وسارت أمامي، عرفت منها أين يقيم والدها وزوجته وهي تغادر العربة دسست في كفها بعض النقود رفضتها وأمام إصراري أخذتها حتى تتمكن

من زيارة والدها ومقابلتي، زودت السائق بالعنوان وهناك وجدت الزوجة والأخت والأطفال.

عرفت تكاليف العلاج ومتأخر إيجار الشقة وموعد الحجز للسفر، واقترحت وأنا اكتشف توتر الأخت كمن تشاجر للتو مع آخر (فتخيلتها مثل أناس يسبحون خارجين من سفينة غارقة) أن عليهم الانتقال من شقتهم إلى إحدى شقق العمارة التي أسكن، حتى أتابع سفرهم عن قرب ولما هممت بالمغادرة كانت الأخت ترافقني للمصعد.

قالت: أقسم لك أنه في وسعك الاعتذار.

قلت: لا أجرؤ!

قالت: هذه حماقة.. لماذا أقلقك بكل هذا.

قلت: هذا ما يبدو لك في هذه اللحظة.

ابتسامتها حارة وجنتاها تتوردان، في نظرها عذوبة (قسماتها قسمات زنجية) والضيق يغمرها، كانت تسمع صوتها وقد وجدت نفسها وحيدة، كم أنها سهلة تلك الانبثاقة الجميلة الفارغة من التصنع الكريه والخبث الذي يخدع صاحبه.

قالت: أجل.. كنت بغيضة أعتذر.

قلت: ستجعلينني أشمئز من نفسي.

قالت: تعرف ما عليك أن تفعل الآن؟

وهنا نتصرف بتهذيب مع شخص (وان أخذ في النفس أمر ما كالصورة فنعدم الكلام إلى المجرد عن المادة الذي هو الأصل فلابد وأن تبقى) ما حتى تنتابه حالة انعدام؛ دعوتها للعشاء فلم تمانع أصبت بنوع مقلق من النرجسية والانبهار بذاتها وتفوقها، وفي الوقت ذاته فقدت الإحساس بالمكان والقدرة على فهم واستيعاب موقفها، تصرفها غير المتماسك ناجما عن روح غنية معقدة.

لقد سقطت خارج إطار الزمن وقد خلا عقلي من تيار الحذر فما حدث قطرات جاء أثرها في اكتشاف ما حصل في الماضي. الروائح هنا ليست نسائم الطائف

التي يصعب تحديدها فقد تحولت الشقة إلى فردوس من العطر الشذى، كان باب غرفة النوم يفتح، وأطل وجه نبيلة المبتسم والزاخر بالقوة المنعشة المانحة للحياة.

زرت الزميل في المستشفى أخبرت الطبيب بموعد سفره فلم يمانع وان نصح ببقائه في المستشفى حتى موعد المغادرة، رتبت السفر للجميع غير أن زوج الأخت كان على عجلة فقد عاد قبل الجميع؛ معه انتقلت الأسرة إلى شقة في العمارة التي أقيم بها وأمنت لهم سيارة أجرة تقلهم لزيارة مريضهم والتسوق للسفر.

في صالة السفر بالمطار تحول المسافرين إلى سلعة وفق تغير حالة الأشياء فخلعت عليها خواص سحرية تقلب الممارسات ذات الصلة رأسا على عقب، وهنا جاء النداء لدخول الطائرة فتحرك الجميع وبقيت منتظرا إغلاق باب الطائرة لأتنبه على صوت أنثوي

قالت: الأستاذ مسافر؟

قلت: (وقد غبت عن الواقع) نعم.

قالت: ورحلتك؟

قلت: لقد نمت جيدا.

تركتها معلقة السؤال التالي وغادرت المطار في سيارة أجرة لم ينبس قائدها بجملة، فأدركت أنه احترم انكساري وذلك المطر الخفيف يتسرب إلى أعماقي فأهمهم (أعرف جيدا أنه لا يمكن لأحد أن يربح أبدا) ليصلني صوته لتحديد هدفي، نبيلة بجسدها الممتلئ ووجهها الباش احترما صمتي وفق معايير وقيم اكتنزتها لمواجهة التصرف الفعلي، أعدت العشاء وفي ساعة مغادرتها خرجت بصمت.

قدمت عند عودتي مستندات مصروفات أسرة الزميل للنائب الإداري الذي ثمن موقفي، وأنا أستأذن للعودة لمكتبي.

قال: هل قابلت زوج أخت زميلنا؟

قلت: لمرة واحدة في المستشفى.

قال: وجدت شرطة المطار في حقيبته حشيش.

قلت: كيف؟

قال: نعم كيف وهو الآن في السجن.

غادرت الغرفة مهمهما هذا حقا يوم من تلك الأيام التي يرتكب فيها الحماقات، ليرن هاتف مكتبي على صوت لم أميزه.

قال: الأخ فاضل؟

قلت: نعم.

قال: سلامات متى عدت.

قلت: منذ شهر.

قال: الم تعرفني؟

قلت: آسف.. إنما أتشرف بمعرفتك.

قال: زميلك يحيا.

قلت: يحيا من.

قال: مريض القاهرة.

تواردت الخواطر أعرف أنني انهزمت، لا جدوى من المقاومة فظلها المتبقي ضئيل للغاية ولا يترك لي أملا في خوض المعركة للنهاية.

قال: أنا في المبنى انتظرني.

وصلتني رائحته وهو يسأل السكرتير إذن الدخول؛ ليطل بجسده المعروق ووجهه الحليق وبدلا من أن تلتقي كفانا احتضنني مرددا عبارات الشكر والامتنان

وفق لعب الأدوار بعيدا عن الاستنباط المنطقي ضمن منظور التفاعلية التي تناسب الموقف.

قال: متى تشرفنا؟

قلت: أين؟

قال: بالمنزل.

قلت: حسب الظروف.

قال: في نهاية الأسبوع عندنا مناسبة عائلية.

قلت: والمطلوب؟

قال: بعض من الزملاء وأفراد الأسرة أنتظر حضورك برفقة ابن العم عارف.

تتقاذفني الرغبات الجامحة في الصراخ كان الطفل الذي تأخر دخوله المكتب بسبب مرافقته للسائق ابني مازن فيحي زوج أمه وهي في السيارة تنتظر ؛ التصدع تشكل فالذات ترفض أن تموت وان تخلقت في أعماقي جوانب خاطئة كرد عن فعل قام.

* * * *

استبداد اللحظة

ليست العزلة سلعة قابلة للتفتت يمكن استهلاك أجزاء صغيرة منها، كنت ملتصقة بجسدي أحسست بألم لاذع قطع نفسي وأنا منفصلة عن الجميع.

الهوة السحيقة تشكلت مع رحيله المفاجئ، تمتمت كم أنني بائسة ماضينا ومستقبلنا وأفكارنا مستقبل طفلينا مرام وممدوح الخاص، ها أنا بلا روابط مهجورة أتأمل ذاكرة اقتحمها الموت وزمن مشاغب أقاتل بعنف حتى أكسب وده.

بعد انتهاء أشهر العدة وانصرام أيام العزاء، عبر النقطة المؤلمة وفاة زوجي في حادث سير اثر احتفالية ملتبسة؛ ووسط صمت من حولي المخيم على همهمة أصوات بعيدة ومجهولة عدت لمنزل الوالد.

تعود ممدوح ومرام دلال أمي ومداعبات أخي فهد العشق المقدس لوالدتي بسبب علته المجهولة والدائمة، منذ كان في الرابعة عشرة من العمر والجهد والهزال الشديد وإصابة العمود الفقري وهو في المرحلة الثانوية عندما انقلبت حافلة المدرسة الخاصة التي يدرس بها في رحلة لمجموعة من الطلاب لمعلم تاريخي في برنامج ترفيهي للمدرسة، فأنكب على شئونه متجاوزا الوهن بنجاحه التجاري وإحساسه بقدرته على التنافس وتجاوز العواصف باشرا قات دعاء الوالدة وحدبها الخاص.

استيقظ الرجل في داخلي ذات مساء، وبجواري يجلس فهد نتابع مباراة في كرة القدم بين فريق النادي الذي أشجع تقليدا لزوجي المتوفى؛ وتجاوبا مع زميلاتي في العمل، وانبثاقا من ذاكرة تلميذة في المرحلة المتوسطة شكلتها معلمتها.

- لا.. لا.. سيكون الأمر مريعاً.

- (التفت نحوي بصوت خافت..) وأنا أيضا.

- الهزيمة مرة.

ربضت كفه النحيلة على فخذي اخترق لهبها قماش سروال البجامة القطني فتوقف انفعالي، كان يرتعش نهض وتركني انتظر عودته ولكن المباراة انتهت ودخل طفلاي في فراشهما وشاركت أمي والخادمة العشاء وغسل أطباق المطبخ؛ ثم تمددت في فراشي وقد أرهقني التفكير في أسباب هزيمة فريقي منتظرة اتصال الصديقات عابثات ومناقشات حالتي التي أشعر بنوع من الفضول حيالها؛ وقد ارتبطت بجميع القيم التي أتمسك بها متجاوزة الخوف الذي تملكني وغص به صدري؛ قرع باب الغرفة كان فهد يدعك كفيه؛ وجلس على طرف السرير.

ـ أنا أحبك.

ـ وأنا أيضا حبك.

ـ أتعلمين لم أفرح كثيرا بخسارتك؟

ـ كيف!

ـ لم لا نشجع فريقا واحدا؟

ـ (وأنا أقف قبالته ضاحكة) آه! لذلك بدوت مريبا!

ـ ليس صحيحا.

لامست برقة جبينه فأغمض عينيه، مشاعر مختلطة تنازعني في الحديث عنه فهو يصغرني بأعوام خمسة قارب الثلاثين ولم يتزوج، فكلما تقدمنا لمساعدته هرب حتى توقفت والدتي معلنة عن عجزها مبررة أنه قد يكون عنده أسباب نفسية، أشعر بمعاناته، جلست على الأرض توسد رأسي ركبتيه في محاولة مشاطرته اضطرابه.

أهدابه الطويلة أحبها وإشباع لحواس شرسة رفعت رأسي كان يحدق في سحبته من مكانه ليجلس بجواري على الأرض وبحذر فطري التفت نحوه وقبلته على فمه عندها أصبحت عيناه قاسيتين كالحجر وأنفاسه إلى جانبي تتصاعد، تحرك وغادر الغرفة نمت في مكاني.

* * * *

الركض عبر أزقة الزمن

بعد تسويف وتردد كانت موافقتي سبب توقف انهمار دموع والدتي التي أتعبها جسديا ونفسيا إضرابي عن الزواج، فلما سمع الجميع موافقتي بعد أربعة أعوام من عودتي من رحلة دراسية ووظيفة تتفق مع تخصصي تجولت معها في مدن وقرى متفرقة حتى كان استقراري بالرياض.

ونحن نناقش مواصفات الفتاة المطلوبة والتي تقارب عمري الأربعيني جاء التركيز على واحدة من الأسرة تأخر زواجها بسبب إصرارها على إكمال دراستها الجامعية والعمل.

وهنا كان استئجار شقة للسكن وتأثيثها بالفرش والمقاعد وجهاز التلفزيون وأجهزت المطبخ الرئيسة على أن يتم شراء المستلزمات عند الموافقة وحسب مطالب العروس.

في هذه الأثناء كنت اختلي بنفسي في الشقة لملاحقة مباريات كرة القدم في كاس العالم التي تذاع عبر قنوات التلفزيون المشفرة.

ولم ألاحظ أن الشقة المقابلة لشقتي بها طبيب عربي وزوجته وابنته ذات السنوات العشر حتى سمعت صوتا أنثوياً ذات ظهيرة يستأذن الدخول من الباب الموارب وعمال التمديدات الكهربائية يوصلون أسلاك مكيف الصالة التي أجلس بها.

كانت جارتي تبحث عن هاتف به خاصية الصفر لتتصل بجوال زوجها الذي تأخر ومعه الابنة التي انتهى يومها الدراسي فقدمت لها هاتفي وتواصلت مع زوجها، وقد لفت نظري جسمها الرشيق وشعر رأسها القصير والمقصوص (قصير تواليت) كالرجال.

انتهت واستأذنت اتصالاً آخر، وتبادلنا الابتسام استئذانا ولما تناولت الهاتف منها كان ساخنا وكفها ساخنة، سرنا نقاوم الاعتذار ونخاتل السؤال عن الحال حتى الباب وانتظرت حتى دفعت باب الشقة ودخلت.

انتهى عمال الكهرباء من انجاز عملهم وجلست أتابع لقطات مكررة لأهداف مباريات الأمس وقد نسيت إن الباب لم يغلقه العمال لأجدها تقف على راسي وبين يديها طبق به قطع حلوى وبسكويت، لمحت ارتباكي فضحكت .

ـ جاء زوجي وابنتي.

ـ الحمد لله.

ـ وهذه الحلوى سبب تأخره.

تناولت الطبق وخرجت قمت بإغلاق الباب وتمددت لأخذ دقائق راحة ولكن قرعاً خفيفاً على الباب نبهني، كانت هي والابنة يستميحاني مشاهدة المباراة التي سوف تبدأ بعد دقائق وفيها يمثل منتخب بلدها فريقاً حمله الجميع الصعود لادوار متقدمة، وقبل سماع موافقتي جلستا.

رن هاتفي يدعوني للحضور فخرجت ولم اهتم بالاثنتين، كانت والدتي التي تعرضت لنكسة صحية تنقل للمستشفى وهناك طال انتظارنا حتى كمل الفحص ونصحنا الأطباء بجلوسها أربعاً وعشرين ساعة للمراقبة فرافقتها أختي الكبرى.

في العاشرة ليلا عدت لشقتي ابحث عن الخلوة وعن متابعة باقي المباريات فوجدت قنينة عصير فواكه وطبقاً آخر به حلوي وقطعة كيك وقنينة ماء صغيرة تبقى نصفها.

في الواحدة وأنا أستعد للمغادرة آخذت أعيد ترتيب المقاعد وحمل الأطباق وآثار يوم كامل من الحركة، ولما فتحت باب الشقة وجدتها تقف في باب شقتها ترتدي ثوب نوم ناعم قصير يكشف كتفيها وجزء من صدرها، لم تتحرك فاقتربت منها حاملا الطبق الذي تركته، تناولته مبتسمة ودعتني للدخول.

الشقة معتمة وضوء أحمر خافت ينساب في كل مكان، وفي مواجهة الممر باب مفتوح وسرير نوم خال تعامد نظري مع نظرها على الباب المفتوح، كانت تحقق برنامجها، عرفت أن الابنة راقدة في غرفتها وأن الزوج بالمستشفى وأنها الآن هي من يريد قضاء دقائق متعة تبحث عنها بين وقت وآخر.

استمتعت بمفاتنها وحراكها، لم أجد صعوبة في الدخول في كل مكان من جسدها، ولما توقفنا نستعيد أنفاسنا.

ـ تصدق لم أبحث عن الكثير؟

ـ وأنا كنت قلقا.

ـ لم القلق؟

ـ شيء لا أتحكم به.

كانت امرأة بلا قضية إنما عندها هدف محدد، تريد فقط أن تكون أقل خوفا، ووجدتها كتلة من المفارقات رخيمة أنيسة بمتعة البراءة الأولى؛ لنتنبه على صوت جرس الساعة التي لا ادري أين، رافقتني إلى الباب الذي لم تغلقه حتى قفل المصعد بابه.

انقطع حضوري للشقة بسبب تدهور صحة والدتي، وتناوبنا في البقاء في المستشفى، وفي هذه الأثناء التقيت بالفتاة التي اختارتها والدتي عند زيارة والدتها لوالدتي ومرافقتها، وفي الممر اقتربت منها شاكرا زيارتها وأمام نافذة الممر المطلة على فناء يضم مواقف السيارات ومقصف وجبات سريعة ومشروبات يبيع باقات الورد وعلب الحلوى لزوار المرضى توقفنا فرفعت الغطاء عن وجهها لتسمح لي بمشاهدته عن قرب، تميل للسمرة نحيلة الجسد طويلة القامة ترتدي فستاناً حديثاً ضيقاً وبعفوية أهملت طرفي العباءة لتنفتح حتى أكون صورتي عن شكلها.

في اليوم السادس صممت على الذهاب إلى الشقة، وأنا أفتح الباب فكرت في طرق باب الشقة المقابلة ولم أتشجع، كانت الساعة التاسعة ليلا والظلام والمطر والبرد يحيط بكل شيء، فأشعلت الأضواء وتركت باب الشقة مواربا منتظرا حراك المكان، وإذا بصوت رجل يستأذن كانت جارتي وقد تهدلت العباءة المزخرفة على الكتف وزوجها وابنتها بعد عشاء في أحد المطاعم تبادلنا التحية أعتذر الجميع عن قبول دعوتي.

ولم يمر وقت طويل وإذا بالباب يقرع كانت الطفلة تحمل قنينة عصير فواكه وطبق حلوى وبسكويت تناولته منها ومررت كفي على رأسها وتابعتها بنظري وهي تدخل شقتها.

نمت في مكاني لأتنبه على الهاتف كانت خطيبتي تدعوني لمقابلتها، جاء اللقاء في السادسة عصرا كانت تنتظرني في مكان عام أوصلها إليه سائق أسرتها وعلامة التعريف حقيبة يد خضراء وزنبيل عليه علامة محل تجاري معروف حتى لا يلفت بحثنا رجال الحسبة ومرافقيهم من أفراد الشرطة؛ وفي عربتي وبعد أن غادرنا موقف السيارات تقابلت كفانا وفي مقهى بمركز تجاري توقفنا.

ـ دعوتي للتعارف أكثر.

ـ هذا مشجع.

ـ وعلينا عدم التسرع في القرار.

ـ اجل.

وتشعب الحديث فالحاضر يدغم ذاتين في واحدة، لم يكن هناك خيار؛ ليرن هاتفها، وهنا طلبت مني إيصالها إلى المكان الذي أخذتها منه وان اقترحت عليها إيصالها لمنزلها لم توافق فوالدتها وإحدى قريباتها في انتظارها بالمكان الذي أخذتها منه.

انشغالنا بمرض والدتي والبحث في مناسبة الفتاة التي اختارتها أمي وأسرتها زرع القلق والجدال بين إخواني وأخواتي وقد تنافس الجميع في إيجاد البديل المناسب.

بعد اتفاق مع شركة دواليب المطابخ جاء موعد التركيب الذي تأخر فسبقتهم إلى الشقة انتظر وصول عمال النقل والتركيب، وأثناء حركتهم أطلت جارتي محيية ووقفت أتحدث معها، كانت العاشرة صباحا، تتناول قهوة الصباح دعتني للدخول والهاتف يرن رفعت السماعة كان الأخر يحدثها وهي تحدق بي معلنة عن ترحيبها بوجودي، ولما أغلقت الهاتف طوقتني بذراعيها وجلسنا ملتصقين؛ امتصت الحياة مني وزرعت في داخلي تألق اله الحب، منزاحة بكل وجدها

وشبقها إلى مرحلة خلق صور جديدة من العشق في لحظة اندغام مع شقشقة عصافير الصباح وصوت حركة المارة والسيارات في الشارع.

انتهى العمال من مهمتهم وكان علي تسليمهم باقي أجرتهم، ولما بقيت وحيدا في الشقة جاءت تحمل طبق الحلوى والبسكويت وقنينتي عصير الفواكه، جاء حديثنا عادي فقد تجاوزنا الانبهار.

وفي اللقاء الثاني بخطيبتي لم أكتف بتعانق كفينا فقد أطبقت على شفتيها في قبلة طويلة لم تقاوم استسلمت حتى شعرت أن أنفاسنا تقطعت فتركتها وقد كنا داخل سيارتي التي تقف في ضل شجرة وارفة بعيدة عن الأنظار.

ـ هناك أمر.

ـ خير.

ـ اعرف ان الوالدة مريضة وإنها تبحث لك عن زوجة من اجل الأولاد.

ـ كل شيء بأمر الله.

ـ أنا معك.

وعرفت إنها في زمن سابق أجرت الفحص الطبي للزواج بعد أن تقدم لها أحدهم وجاء الفحص أن صحتها جيدة وان كانت تعاني من بعض العيوب الخلقية منذ الطفولة، أهمها ضيق المهبل الشديد، ولكن من ناحية الحمل عقيم بسبب خلل في المبايض والتصاق داخل الرحم وأشياء أخرى اكتشفتها بعد تخلي من خطبها عن إكمال مشروع الزواج، كانت مصارحتها ايجابية وتمنحني فرصة التفكير.

ـ هل أمك أخبرت والدتي؟

ـ لم تفكر في ذلك.

ـ ولماذا؟

ـ لا أدري.

اتفقنا على إبقاء الأمر سرا حتى تغادر أمي المستشفى وأوصلتها إلى منزلها وداعبتها برغبتي في الدخول واقتحام غرفتها.

خرجت والدتي من المستشفى منهكة وبقينا حولها نرحب ونستقبل الجيران والأقارب مما أنساني الهروب إلى شقتي، كما جاء تكليفي بحضور برنامج تدريب لمدة خمسة عشر يوما خارج البلاد، فرصة للنقاهة والتفكير في مصارحة أمي بشان الفتاة التي اختارتها زوجة لي.

ولما عدت تريثت وأخذت طريقي لشقتي وهنا كانت المفاجأة وجود ساكن جديد في الشقة المقابلة أسرعت إلى مكتب العمارة فأفادني بان الطبيب في إجازة من العمل ويسكن في الشقة الساكن الأساسي، أخته الأستاذة الجامعية وزوجها المرافق الذي يعمل مندوب مبيعات في شركة تجارية للتوريد والعلاقات العامة وعرفت ان الطبيب يقيم في سكن المستشفى وأن زوجته تأتي وقت الإجازات وهي تعمل محررة بصحيفة معروفة كمدير تحرير.

لم أتوافق مع هذه الأخبار فأخذت أتجول بسيارتي في الشوارع ثم قادتني إلى مطعم ومنتزه خارج المدينة يلتقي فيه الأصدقاء لقضاء الوقت ولعب الورق.

وأنا في طريقي للشقة تذكرت اسم المستشفى الذي يعمل به زوج جارتي فهو مشهور وبه خدمات طبية فندقية تجاوزت في بعض الحالات التصور الحالم، وأنا أسير على غير هدى بين الممرات كنت أجد ممرضات وعاملات من جنسيات مختلفة رشيقة وبمظهر خلاب وعلى محياهم ابتسامة تدعو إلى الاطمئنان والبحث عن كلمة طيبة.

ـ الدكتور جمال.

ـ نعم.

ـ ابحث عن الدكتور جمال.

ـ اخذ إجازة .

ـ يعني سوف يرجع.

ـ إذا ولدت زوجته.

ـ نعم؟

بعد عشر سنوات حمل وإجازة مفتوحة وان علامات الحمل اتضحت وبما أنها في الأربعين وكلما زاد عمر المرأة قلت نسبة حدوث الحمل فلابد من رعاية خاصة إذا أثمرت العلاقة؛ وهنا كان الرحيل الذي معه إبقاء الإجراء في نطاق الحلم، ولجت الشقة وتركت الأضواء تشع ولم اهتم بالتلفزيون الذي يحمل فوق ظهره صحناً وردي اللون صغير الحجم، وبجواره قنينة عصير فواكه فارغة.

في الحادية عشرة ليلا رن هاتفي كانت أختي تخبرني بانتكاس صحة والدتي، وأنهم في طريقهم للمستشفى، لم أهتم بإطفاء النور ووجدت جارتي الجديدة ومعها مجموعة من الرجال والنسوة عند المصعد، الجميع راقب خروجي من الشقة .

ـ هل أنت الجار الجديد؟

ـ وانتم؟

ـ نحن هنا منذ عامين؟

ـ شهر.. إنما كان في الشقة آخرون؟

ـ نعم شقيق الدكتورة.

وعرفت إن الدكتورة التي تعمل بكلية جامعية في قسم البنات كانت في إجازة دراسية أثناء الصيف، معه سكن الطبيب وزوجته التي جاءت في إجازة عمل لقضاء بعض الوقت الدكتورة كبيرة في السن وجسمها المكتنز يشع بياضا والأخريات والآخرون يتفاوتون في العمر وتباين الملامح ولون البشرة.

دخلت والدتي غرفة العناية المركزة ثم لفظت أنفاسها وبعد انتهاء العزاء أخبرت أختي الأكبر بفحوصات خطيبتي وقرار الأطباء استحالة حملها.

ـ من؟

ـ زينب بنت الخالة نوف.

ـ هذه تزوجت.

عرفت أنها حصلت على بعثة للدراسات العليا وتوافق ابتعاث آخر من أقارب والدها فكان زواج تسهيل السفر وإكمال الابتعاث، شعرت بالضياع إني أشبه كالكامش الذي عاد خائبا من رحلة الوصول إلى الخلود ومع غروب الشمس وأمام باب شقتي وقفت مترددا بين الدخول والمغادرة وحولي حركة سكان العمارة وتراكض الأطفال، ولمحتها ملتفة بالعباءة تخرج من المصعد، حدقت فيها وهي ترفع الغطاء عن وجهها تدقق في أرقام الشقق ولما وجدتني أراقبها تبسمت، عندها فتحت باب الشقة وتركته مواربا وجلست في العتمة أحدق في التلفزيون وشع نور انفتاح الباب.

ـ لم أجد أحداً.

ـ نعم؟

ـ أخي وزوجته.

كانت في زيارة لشقيقها، زوجها غادر قبل أن يتأكد من وصولها، دعوتها للجلوس جاءت كماء السماء؛ تلفتت حولها تقوم ثمن ثقتها الطائشة في حضور مجهول وكأن شخصا يسوقها ليخلصها من شبح في الخارج كان يركض وراءها.

ـ لا يوجد أحد.

ـ وأنت.

ـ مشروع لم يكتمل.. لا أدري لماذا أحببت هذه المدينة!

ـ إنها رغم تعددها تزرع السلوان.

ـ وتأتي من الضياع.

شرحت لها وضعي أنفاسها أرواح بشر لا تعرف الرعب الضاج بالعزلة، تركتها لإحضار أكل ومشروبات من مطعم مشويات وفلافل اعتدته، ولما عدت كانت تجلس أمام التلفزيون ثم نهضت ترقص على أغنية انبثقت عبر الشاشة

فالرقص يفجر عقدنا الخفية؛ تناولنا لقيمات وتجرعنا بعض القطرات من المشروب شعرت بارتعاشها ونزقها .

ـ سوف يأتي في العاشرة.

ـ من؟

ـ أبو ميسر.

ـ زوجك.

ـ وصغيري ميسر الحياة المتواصلة.

عرفت ان الطفل ذا السنوات الثلاث مع أبيه الذي أخذه إلى مركز العاب الأطفال في سوق تجاري يقتني من محلاته احتياج الأسرة من الغذاء، وحتى تزور أخيها؛ تذكرت جارتي وحملها وخطيبتي التي لم تنتظر ردي.

صدرها الصغير لفت نظري وبياضها المائل للشقرة ألهب أفكاري وفي التاسعة والنصف استعادت الهدوء ورن هاتفها كان زوجها ينتظرها عند باب العمارة وهي خارجة لمحت ابن شقيقها ذا السنوات الخمس ينسل من المصعد فهبطت مع الدرج.

أعلنت الإدارة التي أعمل بها عن برنامج تدريب جديد لمدة عام فتقدمت له وتوافق اختياري مع آخرين من إدارتي ومن دوائر حكومية أخرى، ذكور وإناث في مدينة أوربية وأخرى أمريكية، وبما أنني جربت أمريكا سنوات الدراسة الجامعية فكان اختياري للمدينة الأوربية لندن مع معرفتي بصعوبة المعاش اجتماعيا وسياسيا فقد كان تحد جديداً، جاء سكني وفق ترتيبات المعهد المشرف على البرنامج وبعد أكمال التسجيل وإعداد جدول البرنامج قررت إدارة النادي العربي بالجامعة التي تضم الكلية التي ندرس برنامجنا بين جدرانها استيعابنا في اللجان؛ وكان الحضور اللافت خطيبتي التي لم يؤثر على تركيزها وقوفي أمامها، عرفت أنها أكملت عامها الأول وأن زوجها هجرها بعد ستة أشهر وقد انضم إلى مجموعة معارضة لم تتمكن من توحيد صفوفها في الداخل كحركة احتجاج اجتماعية بشأن مطالب الإصلاح والتغيير التي يمكن الحصول عليها

بالتفاهم والحوار؛ فتحولت إلى جماعات انشقاق سياسية تتوزعها الأثينية الطائفية المذهبية والعرقية القبلية؛ تطالب بإصلاحات سياسية واقتصادية في الوطن وفق أجندة بريطانية تتقاطع مع المصالح الأمريكية.

ـ ستجعلينني اشمئز من نفسي.

ـ نعم؟

ـ لن ارغب في وجود أي كان معنا.

ـ لماذا؟

ـ لجرحي القديم الذي دمك جف عليه!

وتركتها مع مجموعة من الطلاب لمناقشة اختيار أعضاء مجلس إدارة الجمعية التي تشارك في نشاطها العلمي؛ ولحق بي أحد أعضاء البعثة وجلسنا على مقعد في حديقة عامة تقبع بين السكن والجامعة يائس حزين وبمعرفة كاملة كنبوءة حالة لموضعه الروح .

ـ ستتمكن من مضاجعتها في نهاية الأمر.

ـ تلك اللؤلؤة السمراء؟

ـ نعم.

كنت أعاني من فراغ غامض.. ماذا عساها تريد؟ إنني أجد الخلاص في نكران نفسي، فالدم الذي يجري في أعماقي مسموم، الأمر يتطلب عملية خلق كاملة فقد تلوثت عيني ونفث الصديد سمه في قلبي، أغرق في وهم لم يتحدد إطاره ولم اسع إلى تجاوزه، عالمي الداخلي لم يسع لبعث تجربتي الذاتية والتعبير عنها بلغة واضحة.

وفي الصباح وأنا أستعد لمغادرة غرفتي للجامعة وجدت ورقة صغيرة تحت الباب (هذه الليلة سوف أحضر إلى غرفتك في الحادية عشرة والنصف.. خطيبتك) ذلك الشعور الملتبس الذي استقر في داخلي جميع أفراحه صارت الآن تخفي طعما غير مستساغ، فوجودها بعث في لذة لاذعة.

ـ أتعرفين ماذا فعلت اليوم؟

ـ ماذا فعلت؟

ـ لما أنهيت كلمات رسالتك .. فكرت بالموت.

ـ وبعد؟

ـ تذكرت حياتي المحمومة والمعقدة.

وتوقفنا عن الحديث كنا نركض نحو اللحظة التي استعصت وذلك الجوع الممتد لكل شيء خلفنا؛ أشكل معها صيغة أحلامي كما الآخرين، وكل ما أتذكره أن حلمي كان يسير معي في الشفق، وفي لحظات انتشار ظلي ببطء على الجدران وأنا أركض بحثا عن شيء أسطوري.

دفنت وجهي في صدرها أستمع لنبضات قلبها وأستنشق الرائحة الطيبة؛ ناصت للحديث المرسل بالحكمة والمغفرة أستجدي البقايا المشتعلة من طموحات عالمها الدوار وقد استنفذت السنين ذاكرتي، فلها طريقة سرية تكفي لمعرفة أن دائرتها الوسيعة المطوقة تضم الكل وقد تبلغ الكل.

وعند مدخل مكتبة الجامعة انفصلنا، ودع أحدنا الآخر بكلمات مقتضبة؛ لأجد مرافقي في إعداد بحث الموضوع الذي نشترك فيه مع باحثتين من جنوب إفريقيا ونيوزيلندا يناقش ما تم الانتهاء منه لتكون المراجعة بوجودي.

ـ رائحتك عبقة.

ـ....

ـ لقد ضاجعتها أخيراً أنها رائحة الأرض.

ـ....

ـ لقد قتلت الأوراق.

ـ أنا رأيتها تسقط.

كان يسترق اللحظات لينفس عن اكتشافه باللغة العربية أمام صمت مرافقتينا وانشغالهما بتدوين الملاحظات وصياغة ورقة العمل وتوزيع المحاور عند النقاش واحتفلنا أربعتنا في نهاية الأسبوع الأخير، بالتقدير المتقدم في مطعم الجامعة ثم في غرفة الإفريقية التي قدمت جسدها قربانا للمناسبة؛ النيوزلندية الساخنة مثيلية وتميل إلى الذكورة مبررة حيويتها وزهوها، وان تمكنت من اكتساح حصونها والركض في ساحاتها كما حصان بري انفلت لجامه عنوة من يد مروضه، بعدما لعب المشروب برأسينا وقد علا شخير مرافقي وكذلك الإفريقية التي سكن حراكها، ولما عدنا لرشدنا كان الصداع يحطم رأسي والشقراء ترمقني بتوجس ثم أجهشت بالبكاء.

ـ هل انتهينا

ـ....

ـ هو الوداع لزمن مليء باللاشيء.

نوبة من نوبات الضعف التي تنتاب القلب، واصلت البكاء متكئة إلى كتفي لا يمكن تصوري ونظرات زميلي القلقة والإفريقية المبتسمة فأحسست بنفسي خسيسا، ومعها أصبحت عيناها قاسيتين، واستعادة وعيها تحول البكاء إلى حشرجة، احتضنها مرافقي وغادرت الغرفة مع الأفريقية.

بينما أراجع بيانات أوراق إجراء في المكتب رن الهاتف كانت خطيبتي السابقة التي عادت، تدعوني لموعد عشاء مذكرة بما يقوم به المحبون في الغرب عند الموعد الأول.

* * * *

شـــذرة

كما هي الرؤيا شعرت بها تقف في وسط الغرفة، جاءت كما كانت عندما أوقفني رجال الشرطة ولم يتبق على الطائف المدينة المكان والناس سوى مائة وخمسين كيلومتر، سيارتها ارتطمت بحاجز الطريق الأسمنتي في محاولة من السائق تجنب الاصطدام بقطيع من الأغنام انبثق فجأة، زوجها المكلف بمهمة عمل في مكة المكرمة دفعها إلى مشاركته الطريق.

ترددت في نقل الاثنين فأنا عائد من الرياض بعد فشل إقناع زوجتي الثالثة التي اختارتني لمظهري بعد معرفتها بفشل تجربتين ان يستمر زواجنا الذي لم يكتمل عامه الأول.

لما دخلنا الطائف في الثالثة صباحا البرد والضباب يركضان في الشوارع الخالية، أقنعتها وزوجها بقضاء بقية الوقت في سكني المكون من غرفة وصالة جلوس ومطبخ أكن فيها منذ شعرت أنني مختلف، زهد في أشياء كثيرة من الموجودات.

مع ارتفاع صوت المؤذن ينادي لصلاة الظهر، لم يكن هناك أحد فقلبت هاتفي الجوال الذي توقف نبضه بسبب انتهاء البطارية، كنت أرقد على الأرض في الصالة أمام التلفزيون وخلفي دولاب الكتب التي تشاركني قلقي.

هنا أشعر أنني أملك نفوذاً معه أصرف النفوس وكشف العلوم التي تعسر على الآخرين، فوجدت لنفسي الحظوة التي تتجاوز الذلة ولا تشعر بالحاجة، دخلت الحمام وانسكب الماء على جسدي، بدلت ملابسي وخرجت مع ارتفاع صوت المؤذن يقيم الصلاة، وفي المكتب طرح رئيس القسم بعض الأسئلة وقد استفسر رجل أمن بالهاتف عن وجودي.

قبل انتفاء الأسئلة وإكمال باقي ساعات العمل، تذكرت هاتفي النقال فتشت جيوبي وتذكرت أني ربطته بالشاحن لإعادة الروح إليه.

تذكرتها كانت رفيقة باقي الطريق منذ شهر، ترتدي قميص بيجامتي البيضاء المخطط، يغطي نصفها العلوي وجزء من وسطها، طرفا القميص ينفرجان عن سرها وسروالها الداخلي، بشرتها السمراء لا تفصح عن أنها تجاوزت الأربعين، نظارتها تزهو، اقتربت من مكاني لينبثق من جدران الغرفة شعاع أبيض تتطاير فيه فراشات وندف بيضاء وقصاصات ورق ملون.

مرآة الوجود تختصر انتظاري وتطلق نقاء أعماق الكشف التي حبسها الذوق لانعدام الفكر الصحيح، قررت وحركتها توجد الحرارة أن تشعره بوجوده حتى يختار بملء حريته، إنما هنا عليها أن تفعل، رفت جفونها قليلا ومطت شفتيها، شعرت بغصة في حلقي، لا لم يكن من الممكن أن أستسلم لهذه الرؤيا التي قد تترك على الفور في الفم طعما زائفا.

تجاوزت رد فعلي الأول؛ أحاول إقناع نفسي أن حقيقة اللحظة البسيطة الخوف لا الظروف المصاحبة، كنت أعرف أن التفصيلات أكثر شناعة، والزمن مغالطة كبيرة والعطاء والمنع تتم وفق المقام الذي معه جاء التشكل.

أنفاسها تلفحني وحديثها يرتقي بنا إلى حالة اندماج وينساب نهر النور صاعدا مع تصاعد أنفاسي، رن جرس المنبه فتحت عيني، النور يشع، قميص البيجاما معلق مع باقي الملابس في المشجب، جلست على طرف الفراش خالي الوفاض واتجهت إلى الحمام لفت نظري برودته والبخار المتصاعد من الجدران كما الضباب.

في المكتب ناولني المراسل مغلف قال ان رئيس القسم تسلمه، فتحته كانت صورة صك المحكمة بطلاق زوجتي الثالثة، ورسالة غير موقعة من رجل أوصلته ذات يوم يخبرني أنه ميت منذ عام ستمائة وستة وخمسون، عندها تذكرت أنني غير موجود ولم يعد أي شيء يفصلني عن نفسي.

* * * *

متآكلا بالصمت

في رحلة قاسية تشكل وجها متآكلا بالوجع، ومع الغضب هام في شوارع المدينة الراقدة في أحضان جبال السروات جسدا متآكلا بالصمت، تزوج وطلق في عام واحد نعتته بفاقد الرجولة؛ غير أنها لاحقته وهي في الشهر الثاني من العدة بأنها حامل، مع شكه لم يقف أمام تسجيل ولدها باسمه.

احترف أعمال كثيرة موظف حكومي سائق سيارة أجرة وحارس في مركز تجاري تعدد أنشطته وقود هوايته في الرسم ويرفض اعتباره فنان تشكيلي وان بعض شخبطاته اختارها أصدقاؤه لتكون تعريفاً لكتب أصدرها النادي الأدبي.

وجاءت ذات مساء كان يقف في بوابة القادمين في المطار باحثا عن راكب ينقله، تلفتت حولها ثم جلست في مقاعد الانتظار وخلت الصالة من المسافرين، تحركت على الرصيف قلقة اقترب منها شيء دفعها للسير بجواره ركبت بصمت السيارة.

عرف أنها قدمت لتشارك في عزاء أختها التي ماتت بعد معاناة مع المرض، طلبت رقم هاتفه لتسهيل تنقلها حتى عودتها لمدينتها ومنزلها في الشمال.

في اليوم الثالث جاء اتصالها أوصلها للسوق لا يدري ماذا تريد، بعد تجوال طال عادت، عرف إنها تبحث عن شيء فقدته؛ الرابعة عصرا اقترح تناول فنجان من القهوة في منتزه في أعلى جبال المدينة، لم ينتظر إجابتها فاتجه غربا لم يكن المقهى بعيدا.

في الصباح وهو يهم بمغادرة الدار جاء اتصالها، كانت ترتب سفرها في مكتب الطيران أكدت رقم رحلتها، ولفت نظرها حفاوة الموظف، عرفت هوايته فأصرت على زيارة مرسمه، ارتبك غير إنها حاصرته تجولت بين رسوماته وألوانه شعرت بالرعشة أمام وجه فتاة تشبهها وطفل ملامحه غريبة.

قال: زوجتي وابني.

قالت: نعم؟

قال: طليقتي.

وهو يوصلها طلبت منه قبول دعوتها للعشاء، فرحلتها في العاشرة ليلا تحول هو المضيف نصب طاولة الأكل بين لوحاته وعلب الألوان، بعد المغرب جاء هاتفها تجول بين شوارع المدينة وأزقتها المظلمة في وجودية مدمرة؛ في الثامنة كان الاثنان يجلسان على مقعدي الطاولة، نهضت تفتت كآبة الغرف المعتمة ولتعلن البؤس الذي يمتصها لاحقها بنظره.

تجاوز انهزاميته وتذمره باحثا عن الحب شاطرته جنونه في إثبات وجوده ورجولته مع تخل عن عقلها معرية قشورها لتغوص في أيام طفولتها انه الماضي الذي ينتقم من كل شيء، تمرغ في داخلها إلى حد الموت.

في المطار دخل معها إلى صالة المسافرين، تناولا مشروبا بارداً والمذيع يعلن توجه المسافرين إلى بوابة السفر شدت على كفه لتمتص واقعه ومشاعره، ليبدأ المرحلة الثالثة من حياته.

* * * *

البقاء على مقربة

اجتزت عامي الجامعي الثالث بتوافق معنوي ومادي، المعنوي شهادة تقدير من القسم الذي أنتمي له، ودرع بسيط من جماعة النشاط الثقافي والرياضي بالكلية.

ومادي حققه والدي في بداية الأسبوع الأول من إجازة الدراسة حيث أخذني إلى وكالة سيارات في الطائف وقام بشراء سيارتي الأولى.

جاء الصيف هذا العام حافلا بالنشاطات الاجتماعية والثقافية التي أسهمت في بعضها، وكان حفل زواج أحد أقاربي مناسبة غير عادية، فقد جاء وأنا أستعد للعودة إلى الرياض لترتيب انطلاق العام الدراسي الرابع.

كنت أفكر بالسفر بالطائرة وحمل السيارة عبر وكالة نقل السيارات، غير أن تفكير أمي بهاجس سفر فلانة عمة العريس المقيمة في الرياض عند أولادها، وفلانة شقيقة العروس المقيمة في الرياض حرك في تجربة السفر برا.

توافق الجميع على الفكرة وانطلقنا ثلاثتنا بعد غداء في منزل أهل العريس، في الرابعة عصرا كنا نغادر الطائف الأرض والناس؛ في المقعد الأمامي بجواري فلانة الأولى عمة العريس وفق حدس خاص، وفي المقعد الثاني وبالتعامد معي تجلس أخت العروس.

وبعد خروجنا من الشوارع الموشحة بأسماء من الماضي وأشجار تين ذابلة وحدائق ورد بكماء والجبال توشحها شمس الغروب الصفراء توقفت أزود سيارتي بالوقود ومعرفة حاجات مرافقتي من السوائل والأطعمة، ولما عدت للسيارة اكتشفت تبادل الاثنتين أماكن الجلوس.

انتصفنا الطريق والظلام يخيم، الإسفلت يتمدد أمامي وأنوار السيارات العابرة والقادمة من الاتجاه الثاني يشاركانا الحديث المتقطع وعلامات القلق والإرهاق، لتطل أنوار مقهى وموتيل مسافرين فكان أن حجزت غرفة لمرافقتي ورتبت إحضار عشاء وشاي.

أوصلت مرافقتي للغرفة التي تفقدتها معهما وخرجت حتى تمارسا حاجاتهما بحرية، ولم ألاحظ وأنا اجلس على احد مقاعد المقهى أتلذذ بمج دخان سيجارتي وتجرع كوب الشاي؛ أن إحداهما تقف في نافذة الغرفة ترصد حراكي.

جاء عامل المطعم يخبرني أن العشاء الذي طلبته معد، أخذته إلى الغرفة، تباين ترحيب مرافقتي كان ملتبسا فقد قرصهما الجوع، البنية الجسدية للاثنتين متقاربة، وقد ارتدت احدهما فستاناً يبرز ثراء صدرها؛ والثانية ترتدي بنطلوناً داكن اللون وعلى الوجه غطاء شفاف.

وأنا أقف عند الباب لمعرفة حاجاتهما جاءت مطالبتهما ان أبقى لمشاركتهما العشاء، كنت أجلس بين اثنتين تباين هاجسهما وتزداد رغباتهما وضوحا وتعلقاً مع قلق لم أهتم به، ولحسن الحظ دائما ما تعطيني الأقدار تعليمات تكون قد تم تنفيذها بالفعل في أكوان أخرى.

لم أجد السياج المعنوي الذي تشكل مع العباءة السوداء وغطاء الوجه القاتم طيلة الطريق، لتحل ببساطة اليقظة والانتباه وهما في نظري يعنيان الأمن والاطمئنان، انتهينا من العشاء وشرب الشاي وحديث متقطع لتقول فلانة التي لا أدري وهي تسأل عن مقدار أجرة الغرفة وثمن العشاء إنني أمثل لها رغبات كامنة في جسدها اليبس الذي معه وقفت الأخرى منصتة ومتقمصة التظاهر بالأخلاقيات، وفي أعماقنا أشجار مكر وشر؛ يقنن بمدى فرادته.

ساد الغرفة عتمة وزاد إشعاع الضوء القادم من فضاء اختلطت فيه بذرات الحياة، الأخرى تقف في النافذة ترمق الأفق ثم غادرت الغرفة وأنا أتعارك مع من تسعى لامتصاص الحياة من جسدي؛ جاء انتصارها ديمة هطلاء متجاوزا تجاربي العذراء ففجرت الساكن الذي قاومته بوعي مجهول الهوية وبوجد ونكهة تكشفت فيها أنواع اللحظة.

كنت أعرف أني مندفع، إنما كانت هناك لحظات يتوق فيها نفاذ الصبر لاعتياد الانفجار، وبما أني معزول بسبب دراستي أملك صداقات معدودة تشاركني عادات كثيرة تنمي مواهبي وطموحي العلمي، ومن هنا جاء تخرجي وطلب الجامعة أن أكون أحد أعضاء التدريس بحلم الابتعاث واكتشاف الجديد.

وافق والدي على تواصلي العلمي، وحتى تكسر أمي حاجز الخوف شاركتني عدة أسابيع من تشكلي الجديد، وفي يوم عودتها طلبت مني وهي تتسوق أن أحقق رغبتها في زيارة قريبة انقطعت أخبارها حتى تطمئن على صحتها.

كانت الصديقة عمة قريبي فلانة الأرملة التي شاركتني الطريق ومن كانت بجسدها المعروق لحظة انبثاق اكتمل عناصره، التقت كفانا ونظرنا المرتبك لتتحول ابتسامتنا الصغيرة إلى ضحك صاخب توقفت معها أمي عن الكلام.

* * * *

سبات عميق

لم فكر أن الحلم الذي تكرر أخيرا يتجسد حقيقة في يوم من نجم سعد الذابح وقد لف الرياض الغبار ووسم اللون الترابي كل شيء، أنه الفراق المطلق في لحظة غرق في سبات عميق إذ لم يعد هناك أحد.

كنت أنتظر مقدمها في إحدى زوايا مطعم عائلي اعتدنا ارتياده للحديث بعيدا عن الأخريات في هم تلبسنا؛ ننشد الحب الذي معه فجرا ننهض بقلب يطير بعيدا عن عقاب الندم وضعف عندما تلاحقنا الخيبة.

تأخرت فتشاغلت بالعبث بجوالي ومجلة علمية وجدتها على الطاولة التي سبقني إليها النادل فطلبت فنجان قهوة واستأذنته ترك المجلة حتى حضور مرافقتي.

وجاء صوتها عبر الحاجز الذي يفصل الطاولات تتحدث كثيرا ومرافقتها تهمهم وتضحك بصوت مرتفع، ولامسني انزعاجها من شيء يمزقها كان مع توافق جسديهما هناك جزء يغمرها بالخوف والوجع ويدفعها إلى الابتعاد عنه.

رن جرس الهاتف وتوقف الحديث، طال الرنين وتوقف ثم عاد ليتوقف فقد رد أحدهم، شعرت أن هناك حركة قادمة رصدت الممر، إحداهما تتحدث بصوت خافت هي ترمقني بنظرة فارغة من علامات الاستفهام.

تركت مكاني ولحقت بها سبقتني إلى المغاسل والحمامات، وقفت بجوارها أتأملها رفت على شفتيها ابتسامة ألقت التحية، بعد فراغها من الحديث تطلعت في المرآة تعيد تشكيل وجهها.

عدت لطاولتي، هنا لمحت الأخرى، كل شيء فيها يدفعني إلى الاقتراب منها ومشاركتي طاولتي فقد مللت انتظار صديقتي.

قالت: وأنا تركتني صديقتي.

قلت: نعم استمعت لطرف من حديثكما.

قالت: حديث أنثى.

قلت: ليس هناك ما هو أكيد سوى ما نلمسه.

قالت: لم يعد في وسعي التركيز.

اكتشفت أنها أنا بكل عقدي وهمومي، توقفنا عند العمل وأيام الدراسة والزواج وأتت صديقتها مرتبكة خائفة، فقد تعرضت لحادث سير تخلصت منه بأعجوبة، وصديقها يحل إشكاله مع رجال الشرطة، تركت الجميع وأخذت سيارة أجرة.

لم تعتذر صديقتي ولم يبق من الوقت كثير، ونحن نستعد ثلاثتنا للخروج، اتفقنا أنا أقوم بدفع فاتورة المطعم على أن توصلاني للمنزل وتبادلنا أرقام الهواتف والأسماء .

وأنا أتمدد في الفراش بعد تفقدي ابنتي ذات السنوات الثلاث منتظرة اتصال زوجي المسافر في مهمة عمل خارج الرياض لمدة يومين رن الهاتف كانت رفيقة المطعم.

حدثتني عن صديقتها المنحوسة وباحت بألمها الذي تراه نادراً عرفت أنها تدفعني للاقتراب أكثر وأني أذكرها بزميلتها في الجامعة وأيام الدراسة وأشياء أصبحت كل حياتها .

قلت: وأين الألم؟

قالت: فيه

قلت: من؟

قالت: زوجي.

عرفت أنه يسحقها بقوة وأنه يمزقها في الفراش ويلغي وجودها الإنساني والجسدي في البيت ولا يحترم خصوصياتها بفعله غير الطبيعي، كنت أضحك من استرسالها، عرفت إنها لم تكمل عامها الأول كزوجة في شهرها الرابع، تزوجت قبل التحاقها بالعمل في منتصف الفصل الثاني من العام الرابع والأخير

في الجامعة، لم تفكر أن عليها أن تحسم أمرها بشكل نهائي، إذ لم يكن لديها سوى سلسلة من الهموم الأسرية الصغيرة.

مع الوقت شعرت برغبة في لقاء الزوج، لم تعترض ولم تنفر من فكرتي فقد وجدت في شيئا مما فقدته في صديقتها، هم مشترك وفراش لم يعد شريكه يشكل همنا شعرت بالدم يحتقن في وجنتيها، انتشرت على وجهها عذوبة ملائكية، رتبنا بصمت اللحظة، كنت عندها مارسنا عبثنا قبل مقدم صديقتها، اختلط عرقنا كان الوقت نسيم من الفرح المترع بالراحة والسكينة. فغاصت أناملنا في أجزاء تعودنا مداعبتها عندما نكون في خلوة وقد جمح الخيال.

أوصلني للمنزل تقطع الحديث بيننا في السيارة أنا في المقعد الخلفي وهو يسترشد العنوان شعرت بنزقه.

قلت: توقف حتى انتقل لجوارك.

لم يرد، أعرف الطريق طويل والمنزل خال، زوجي سافر وابنتي عند أمي، أغالب الخوف ونحن نقترب من المنزل أشعر بالعبء لا أحس بانزعاج فقد أخذت على نفسي اقتحام التجربة بأمانة وعلي البحث عن التركيز المطلوب بصرف النظر عن كل شيء.

قال: نعم.

قلت: حتى تسمع صوتي ونصل.

توقف عند محطة بنزين فترجلت ودخلت البقالة وشريت قنينتي عصير وعدت جلست في المقعد الأمامي، هو اللجة والأبهة وأنا الوردة الكاملة الشذى، ووصلنا تريث حتى افتح الباب تمهلت أبحث عن المفاتيح ترجل ووقف بجواري.

قال: الا يوجد أحد؟

قلت: نعم.

قال: قد تكون هي الساعة.

قلت: تماما كالحياة زائفة.

قال: الوقت.

قلت: لحظة ممتازة هي انتصار كامل للذة روحية.

وأنا أدخل المفتاح في فتحته أمسكت كفه بكفي تساعدني على إدارته، ولما انفتح الباب سبقني داخلا،أضاء النور وهم بالخروج دعوته للتريث حتى نحيل انتهاك اللحظة إلى حلم وومض هائم في متاهة تلهفي للمعرفة، وكنت أخزن في ثلاجة غرفة النوم الصغيرة علب مشروب بيرة بنسبة مرتفعة من الكحول يحضرها زوجي من مهندسي الشركات الأجنبية التي تنفذ بعض المشاريع لإدارته.

قلب العلبة قبل أن يفتحها ليعرف محتواها ورمقني مبتسما (هو مستوى الحدس الذي قد تبهره البداهة، وإشراق النور الرباني)، وقد تخلصت من العباءة وأبقيت الخمار ملفوفا على راسي يغطي شعري، سروالي الجينز يحدد معالم جسدي والفانلة القصيرة ذات العلاقات الشفافة تعري صدري وتكشف بطني وجزء من ظهري، تجرع العلبة وتجرع ما تبقى في علبتي واقترب أكثر، كنت أتراجع في انبثاق توازن بين التضحية وأنانية الاكتشاف، وكان كلي يستدعي نفسا مجردة فلا انطباع في الخيال وقد اختلط اللون والشكل وغاب المكان.

أنفاسه تلفح عنقي أترقب اكتمال اللحظة واندغم في أعماقي تحطم زجاج روحي وانتثرت أطرافي وبعض التعب يراود في الأفق حلم البداية، تهاويت شهاباً تخلت عنه السماء وكان كبرقة بنقش غيبي مترعة بلذة تتعدى الحس، آتية من مكان بعيد مجسدتا وعياً لم أفكر به، عشته في أمكنة وأزمنة مختلفة وكشلال انسكب في داخلي.

عندما رن هاتفه تخلى عني بعدما طرح كل سبب وتجاوزت كل علة؛ وسمعته وهو يغادر الغرفة يقول انه في الطريق، نمت كما لم أنم منذ شعرت بوجودي.

هاتفي مليء بالاتصالات والرسائل، زوجي يعتذر عن العودة فقد يحتاج العمل ليوم آخر وصديقتي تعتذر عن اتصالها لسفرها المفاجئ برفقة والدها لحضور

مناسبة عائلية في جدة حيث سبقتهم والدتها، ومديرتي في العمل تكلفني بمراقبة الدوام لأنها سوف تغيب لظرف عائلي، وصديقتي الجديدة تقول في رسالتها هل مزقك؟ وعدد من علامات الاستفهام.

في المكتب تخيلت أن المكان أكثر بهجة وضياء، عجزت عن تفسيره، وفي المساء وصديقتي الجديدة تدعك كفي بحثا عن الإمداد والإلهام وقد ارتفعت ببصيرتها فوق المكان والزمان بمشاهدة الحياة الأبدية بتجلي نعيم السر الإلهي. وتستنشق رائحتي تحثني على الحديث عن تجربتي مع زوجها، كانت أكثر نشوة وألق وأنا أحتضنها مدللة على أن التجربة نادرة.

تأخر زوجي لليوم الثالث هاتفه مغلق، في الخامسة عصرا أخي وأمي عند الباب توجست الشر زوجي تعرض لحادث سير وهو بمستشفى حكومي في العناية الفائقة معالمه تغيبها أربطة وأجهزة تنفس صناعي.

انتقلت إلى المنزل القديم عدت لغرفتي المغلقة فتحت كتبي وكراسات الدراسة وعبث أيام التخرج من الجامعة، ابنتي في رعاية والدتي، السائق وعاملة المنزل تبدلت مسئوليتهما فالسائق مع زوجي بالمستشفى وتغيبي عن العمل المؤقت، جاء مع انقطاع صوت رفيقتي المطعم.

صديقة الطفولة ومرحلة اكتشاف الجسد وغواية اندغامي في العمل لم تعد تتحدث عن حبيبها الذي توقفت اتصالاته مع نهاية الشهر الثالث على انتقال وظيفته من الخارجية الى دبلوماسي في أقصى الشرق، كما أنها وهي تزورني تشعرني بأني ابتعدت عنها ولمحت أني لم أدعها إلى غرفتي التي تحتضن صبوتنا.

أشياء كثيرة تبدلت لم أعد أدركها ولم أهتم بعناية شقيقي بملبسه وحرصه على خدمتي وهو يقترب أكثر من صديقتي وجارتنا القديمة التي يعرفها طفلا وفتى تمازحه وتلاحقه في ممرات الدار وهو يختلس النظر لمعرفة ما يدور بيننا حتى تخرجنا من الجامعة وانتقال أسرتها إلى شمال الرياض وتأخر زواجها وقدرتها على إقناع أسرتها بفكرها.

وهي تعلن سرا أنها تزوجتني وتخوننني مع بعض الصديقات، إذا غبت وتزجي الوقت ومن تلتقي بهم في المناسبات العامة.

ذات مساء وقد أدركت أن زوجي يموت، عرفت أن أخي تجول في حصون صديقتي عندما حضرت لزيارتي أثناء قيامي ووالدتي بمعاودة زوجي، وتأخرنا في العودة لشراء بعض الحاجيات، جاءت صديقتي وقد رتب أخي اللحظة، اعتذر عن مشاركتنا الزيارة، كان ينتظرها عند المدخل أخذها إلى منزلي المغلق وهناك شرعت أبوابها قدمت له كل شيء حدثته عن مغامراتنا واكتشافنا حياتنا وكيف نقضي ساعات اللقاء.

غاب أخي في رحلة مع الأصدقاء هربا من مواجهتي، وقد أخبرتني صديقتي بما تم في تجل تفسر ترديدها (فالخلق وجودهم خرج من عدم بفضل حب متبادل وبالحب يوجدون الآن) وإنها نامت هذه الليلة في فراشي مرتدية إحدى بجاماتي الحريرية حسب اختيار أخي الذي تفجر في أعماقها مستعيدا ذكرى أول قبلة طبعتها على خده ذات مساء؛ بعذر إنها كانت عندي تواسيني في مصابي، لم أحتج فقد اعتدت نزواتها وتجاربها.

توفى زوجي وجاءت صديقة المطعم وزوجها لمواساتنا، اكتشف أقاربي أن زوج صديقتي ابن أرملة من أسرتنا انقطعت أخبارها بعد أن هاجر زوجها للشمال كرجل أعمال وهناك توفى فتزوجت من مساعده وعامله الأثير وتربي ابنها مع أولادها وبناتها من زوجها الجديد.

صديقة المطعم قررت تطليق زوجها، إنما تنتظر اكتمال أوراق ابتعاثها للدراسة في لندن وهناك تنهي حياتها الزوجية، عرفت أنها تعاني من عيوب خلقية ناقشتها فلم تقتنع دفعتها إلى تجريب معاشرة السائق الذي ضاجعني ذات مساء بعد مداعبتي لزوجته التي لم تقاوم فتدفقت فوق جسدها العاري ليدخل راقبنا حتى انتهينا لم أشعر به وهو يخرق مساماتي برائحته وعرقه الذي لطخ جسدي كان في حراكه الخائف جذوة خامدة لم تشعل فتيل حواسي.

في البدء رفضت بكيف يتسنى للروح أن تخلص نفسها من عبء ما، ثم أمام إصراري وبكلمات مقتضبة.

قالت: أني لا أكاد تفهم إمكانية السعادة.

قلت: ثمة من يمكن ان يتاح له أن يسعد؟

قالت: والنوايا؟

قلت: الحالم والمحلوم التراب والنار.

قالت: التراب؟

قلت: كما نظرية الوظيفة البنائية.

أرسلتها مع السائق وزوجته الخادمة لتنظيف منزلي وجلب شيء من ملابسي، وبعد انتهاء الاثنتين من إعادة ترتيب بعض أثاث المنزل دخلت صديقتي الحمام والماء ينسكب على جسدها، طلبت من الخادمة تدليكها، انتقلت الاثنتان إلى الكنبة القابعة في الممر لمواصلة التدليك ودعك جسدها الملتف بروب الحمام بمرطب يزيل الرائحة، وهنا دخل السائق محملا بالعشاء تركه على طاولة الطعام في المطبخ واتجه مع صوت الاثنتين اتكاء إلى الجدار وطرفا شفتيه يرتجفان بعصبية، خبأت وجهها بيديها وقلبها يدق بقوة. تتراخى ثملة تستحضر الوجه الذي أحبته. في فمها طعم ملح. النور يعم المكان؛ تدفق في أعماقها أشعرتها بالنشوة رائحة عرقه وجسده غرقت في اللذة التي تبحث عنها، انه الخدر اللطيف الذي فقدته.

بعد أعوام خمسة على رحيل زوجي ابنتي في الثامنة وأمي العجوز النحيلة انهكها المرض، وأخي في رحلة تعليمية لمدة أربعة أعوام تبقى عليها عام، تطور عملي فأصبحت مديرة شئون العاملين في إدارتي المرتبطة بوزارة الشئون الاجتماعية، ركضي مع صديقاتي لم يتجاوز اللحظة التي غفل عنها الزمن، مما ورثت من تركة زوجي المنزل الذي شكلني كزوجة، واختارني كأم لطفلة يضحك لها القمر، تتنقل بود من أحضاني إلى حدب أسرة والدها، لم يغامر أحد منهم في التدخل لأخذها أو إرغامي على الزواج من أحد إخوته.

وفي العام الخامس جاء زوج صديقتي المبتعثة للدراسة في لندن يخبر أقاربي أنه طلقها وأن أمه تبحث له عن زوجة من قرابتها، يدرك أن هناك لغطاً يتعلق

بوالده الذي تزوجته أمه ذات الأسرة المعروفة ورحيلها بعيدا لتعيش خيارها بحس المسئول، فكونت شراكتها الأسرية شركة تجارية نمت كمؤثرة في المقاولات المعمارية والتجارة، كان والده أجيرا عند أسرة والدته مجهول النسب، حصل بموجب إجراء خاص على الهوية الوطنية وكلله بزواجه من الابنة الوحيدة لرجل الأعمال ذائع الصيت في الرياض والكويت.

كنت الزوجة التي يبحث عنها، جاء صوته عبر الهاتف تحدث كثيرا لم يتطرق إلى لقاء الاختبار الذي اندفع فيه تحقيقا لمؤامرة أعددتها مع زوجته، القرارات التي تنتظرني نابعة من إرادتي وسعادتي تقوم على إرادته الحرة، وأنا لا أملك أي سلطة عليه، شعرت أنه يعرف عني كثير.

لما ناقشت والدتي لم تعترض، المرض لم يترك لها مساحة أكبر للنقاش، أخي المسافر يرى أنني املك قراري خالي الذي كثرت زياراته لمتابعة أمي صحيا يعارض، أما أقارب والدي فهم مشغولون بخطاب ديني جديد أعادهم للواجهة، وجاء صوت صديقتي من لندن أخبرتها ضحكت قالت إنها في سلام مع نفسها، وعادت لها تلك البهجة المفعمة بالرقة والحنو متيقظة تسعى للحصول على إقامة دائمة في لندن، فقد تحققت رغبتها في نيل الدرجة العلمية، وأنها تمتلك سيارة تقودها بنفسها، وتعمل في مدرسة خاصة كمعلمة لغات شرقية، والأهم أنها تعيش مغامرة جديدة مع أسيوي مهاجر من أسرة ثرية يحمل جوازاً بريطانياً.

دعاني لتناول العشاء في مطعم عائلي ترددت خوفا من هوس رقابي تقمص الرياض، تتناقل الصحف أحداثه بين شاجب ومؤيد، المرأة والمجتمع نقاطه المحركة، احتفظ بدفتر العائلة الخاص بزوجي لوجود اسم ابنتي إضافة لبطاقة الهوية الوطنية التي عليها صورتي مع صور للدفتر قديمة بين ما تبقى من ذاكرتي.

هنا ومن خلال إحدى صديقاتي جاء العشاء في استراحة خاصة تقبع بين مساكن حي جديد في شمال الرياض، لم يكن هناك سوانا كان أكثر أناقة وأكثر صمتا، وسيارته التي أخذتني من مركز الرعاية الصحية الأولية بالحي ظهرا تقبع ساكنة بجوارنا، وقد أشعت أني في مهمة عمل سوف تؤخر عودتي.

قبل العشاء ونحن نتحدث في أمور لا تعنينا بجوار المسبح الممتلئ بالماء غافلني فخلع ثوبه وقفز في الماء وصلني الرذاذ فابتعدت خرج ولاحقني حاصرني ودفعني أمامه في الماء بملابسي صرخت فيه فلم يهتم وفي الماء التصق بي دفعني نحو الحافة رفع رأسه للسماء.

قال: هل تقبلين بي زوجا؟

قلـت: نعم.

قال: حتى الممات؟

قلت: حتى الممات.

قبلني ثم حملني وخرجنا من الماء، العتمة حولنا والزمن نملك ناصيته. رتب كل شيء جاء لمنزلنا مع أحد إخوته من أمه، وحضر والدي من منزله الثاني برفقة السائق، كتب مأذون الأنكحة العقد وقعته ووقعه ووقع والدي كولي أمري وأخوه كشاهد والشاهد الثاني كان سائق والدي.

* * * *

صدر للمؤلف

قصص قصيرة:

1- البحث عن ابتسامة

الناشر نادي الطائف الأدبي - الطائف 1396هـ/1976م

الناشر الدار السعودية – جده ط2/1985م

2- حكاية حب ساذجة

الناشر نادي الطائف الأدبي - الطائف 1398هـ/1978م

الناشر الدار السعودية - جدة ط2/ 1985م

3- مساء يوم في آذار

الناشر شركة تهامة - جدة1401هـ/1981م

4- انتظار الرحلة الملغاة

الناشر نادي القصة السعودي - الرياض 1403هـ/1983م

5- الزهور الصفراء

الناشر نادي الطائف الأدبي - الطائف 1404هـ/1984م

6- قالت أنها قادمة

الناشر الدار السعودية - جده 1407هـ/1987م

7- الغريب

الناشر مجلة الثقافة - دمشق 1408هـ/1988م

8- الانحدار

الناشر نادي الطائف الأدبي - الطائف 1413هـ/1993م

9- الرجل الذي مات وهو ينتظر

الناشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت1415هـ/1994م

10- الطيب

الناشر مكتب الصحافة العربية - القاهرة 1418هـ/1997م

11- الحملة

الناشر نادي جازان الأدبي - جازان 1423هـ/2002م

12- الغياب

الناشر/ أصوات معاصرة ـ السنة 26 ـ العدد 145 ـ مايو 2005م

شرقية ـــ مصر

13- المحطة الأخيرة

الناشر/ دار الفارابي ـ 2008م / 1429 هـ / بيروت

شعـر:

1- معاناة 1397هـ/1977م

2- بقايا وجـود 1398هـ/1978م

3- مقاطع من أوراق عاشق 1407هـ/1987م

مقالات:

1- كلمات حتى نصل (مقالات في الأدب والحياة)

الناشر / نادي أبها الأدبي ـ أبها 1425هـ / 2005م

2- أسئلة (مقالات في الأدب والحياة) الكترونيا بصيغة PDF

الموزع / موقع الكتاب العربي الالكتروني 1428 هـ / 2007م

3- نعمة الوطن وجفاف المنابع (مقالات في الشأن العام)

دار السمطي للنشر والإعلام / القاهرة 1430 / 2009م